

د. رشدي فكار

المفكر الإسلامي العالمي

ونهاية عمالقة

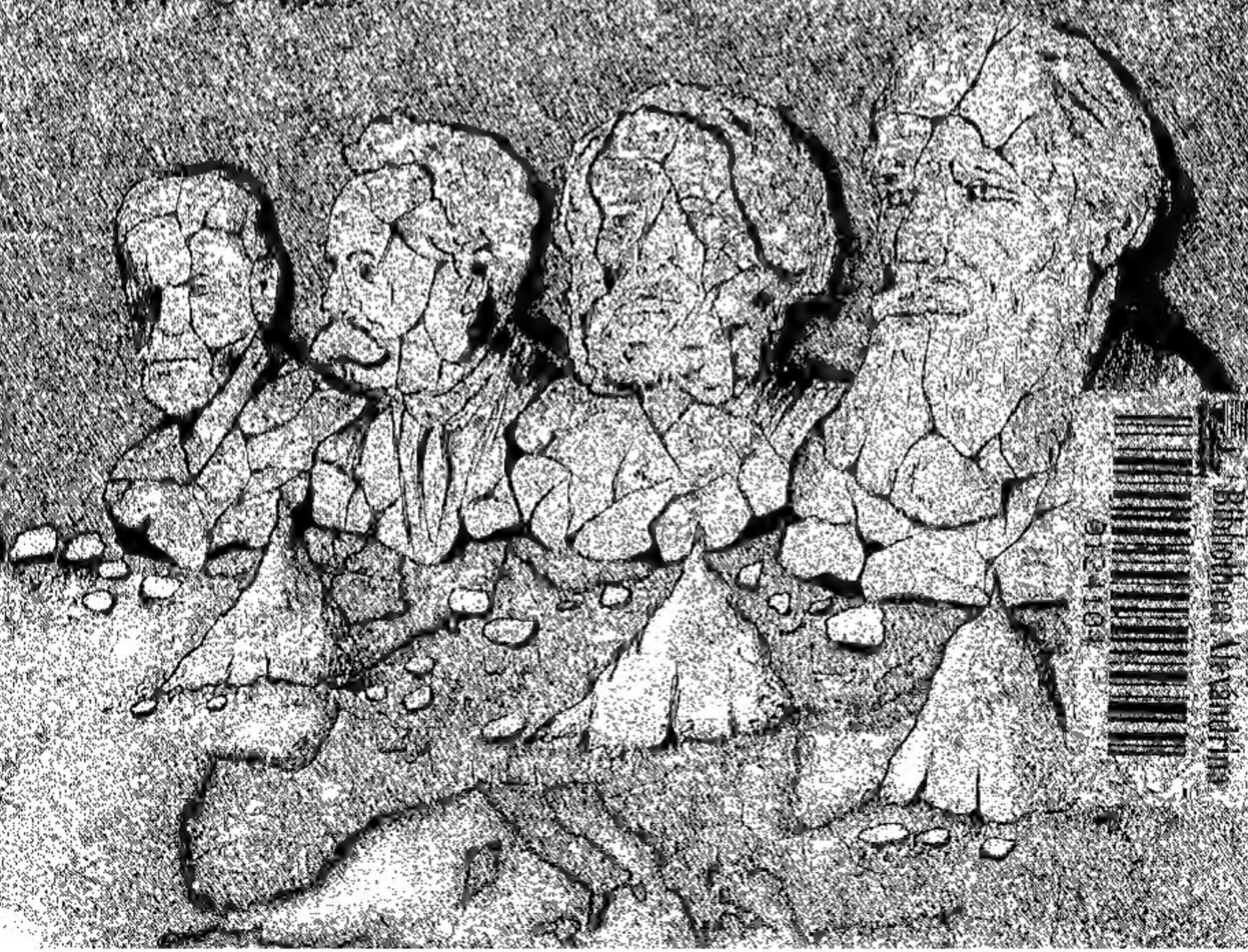
في حضارة الغرب

إعداد وتقديم

سيد أبو دومة

مكتبة وهبه

الطبعة الأولى: ١٩٩٧
الطبعة الثانية: ٢٠٠٧



هذا الكتاب

هذا المجلد الذى تقدمه اليوم "دكتور رشدى فكار المفكر الاسلامى العالمى ونهاية عمالقة فى حضارة الغرب" ، مهدنا له بمقدمة عن مفكرنا رشدى فكار ، وعرض مدخلى بعنوان : "وعن حضارة الغرب يتساءلون" ؛ لنتناول العمالقة من "سان سيمون" عميد مؤسسى السوسولوجيا الحديثة ، والمنظر للمذهب الصناعى والليبرالية والاشتراكية على حد سواء . حتى "جان بول سارتر" أحد منظرى الوجودية المعاصرة مرورا بـ "كارل ماركس" الذى يعتبر امتداداً لـ "سان سيمون" اجتماعياً ، ولليساى الهيجلى فلسفياً ، والفكر الانجليزى اقتصادياً ، و"أوجيست كونت" كاتب "سان سيمون" وتابعه ومنظر الوضعية و "هربرت سبنسر" مؤسس النظرية التطورية الاجتماعية ، متداخلا مع النظرية التطورية الطبيعية لـ "داروين" ، و"نيثشة" كعميد من عمداء فلسفة الغرب المعاصرة ، و"فرويد" كمؤسس من مؤسسى التحليل النفسى ، و"ماكس فيبر" فيلسوف الليبرالية الشهير ، و"أوجيست ستراندهرج" عميد المسرح العالمى وبخاصة المسرح الباطنى . وانتهى المجلد باستخلاص للتساؤل المطروح ، وهو : هل هى نهاية عمالقة لحضارة الغرب ، أم عمالقة النهاية لهذه الحضارة ؟ باعتبار أن العقل فى إبداعه وإشراقه إن لم يتحل بقناعة الايمان متواضعاً أمام خالقه الذى هو فوق كل ذى علم عليم ، قد يقوده تبججه وتكبره ومغالاته واستعلاؤه إلى الطريق المسدود أو المأزق أو التراجع والارتداد ، أو الانهيار ، أو الهزيمة والانكسار ، فبقدر ما أوتى من علم ، بقدر ما عليه أن يكتشف وبكل تواضع إن كان واعياً بعلمه حقيقة جهله بما لم يعلم ، وصدق الحق «وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً» .

هذا المجلد قام بإعداده وتقديمه ، وبإذن من الدكتور رشدى فكار ، الكاتب المعروف سيد أبودومة ، وقد ألفه القارئ العربى بمداخلاته المتعددة كمحرر بارز من محررى جريدة الأهرام القاهرية ، . ويأتى هذا المجلد عن «رشدى فكار ونهاية عمالقة فى حضارة الغرب» ليشكل بتقديمه ، ولأول مرة بالعربية ، فى إطار متكامل متجاوزاً للدراسة الفرنسية التى وضع بها أولاً ، اثراءً للمكتبة الاسلامية ، بعطاء متميز ، يسد فراغاً فى استيعابنا الموضوعى لحضارة الغرب ، بشقيها الليبرالى والماركسى ، وهى الحضارة السائدة حالياً فى ساحة الكون .

د . رشدى فكر

المفكر الإسلامى العالمى

ونهاية عمالقة

فى حضارة الغرب

إعداد وتقديم

سيد أبو دومة

الناشر

مكتبة وهبه

١٤ شارع الجمهورية - عابدين

القاهرة - ت - ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الأولى

١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

جميع الحقوق محفوظة

مطابع دار التراث العربى

ت : ٩٣٦١٤٥ - القاهرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

"ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا"
"صدق الله العظيم"

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

وها هو المجلد الذى كثيراً ما تطلع القارئ العربى إليه يجد طريقه إلى مكتبته وبلغته "نهاية عمالقة فى حضارة الغرب" كما تعامل معهم وتجاوز مفكرنا الكبير الذى يتمتع بشهرة عالمية . فعملاق يتكلم عن عمالقة إنه المفكر الإسلامى المعروف الدكتور رشدى فكار الذى خص الكاتب الإسلامى خميس البكرى بحوار متواصل فى مجلدين . المجلد الأول عن "مشاكل العصر" ، والمجلد الثانى عن "قضايا تراث المسلمين" .

وإنه لمن تحصيل الحاصل أن نفرد سيرة منفصلة لمفكرنا الكبير الدكتور رشدى فكار لذا نكتفى بعجالة نقلع بها من أعماق صعيد مصر حيث مولده فى قرية الكرنك الواقعة فى شمال محافظة قنا وينتمى إلى قبائل عربية كان لها تاريخ طويل فى حضارة الإسلام من مشرقه إلى مغربه حتى الأندلس وهى قبائل "هواره" المعروفة والتى ما زالت حتى يومنا هذا ترمز بحضورها فى مختلف بقاع أمتنا إلى وحدة هذه الأمة وتكاملها عقيدة وأرضاً وتاريخاً بل وسلالات .

بعد دراسة فى الأزهر حيث حفظ القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة إلى جانب متون الفقه حتى ألفية ابن مالك ثم تابع سيرته الدراسية فى القاهرة لينتقل إلى السربون ويكمل دراساته العليا بحصوله على درجة الدكتوراة منها عام ١٩٥٦ ولا يقف بطموحاته عند هذا الحد فينتقل إلى جنيف محاضراً وباحثاً علمياً فى نفس الوقت ليحصل على درجة دكتوراة دولة أخرى مع مرتبة الأستاذية من جنيف عام ١٩٦٧ .

حاضر وتقلد الأستاذية فى كثير من الجامعات الأوروبية والعربية ثم انتخب عضواً فى العديد من الجمعيات والهيئات والأكاديميات والمؤتمرات

العلمية العالمية نخص بالذكر منها على سبيل المثال لا الحصر عضويته في أكاديمية العلوم بفرنسا لدائرة ما وراء البحار (بمجامع الخالدين) منذ ١٦ فبراير عام ١٩٧٣ وعضويته للهيئة العالمية للكتاب بالفرنسية " أدلف " بباريس والجمعية " استرنبرج " الأسكندنافية بالسويد ، كما أقر ترشيحه لجائزة نوبل منذ أكتوبر عام ١٩٧٦ مع إرجاء التحكيم ، فضلاً عن انتمائه لمؤسسات علمية عالمية أخرى كأحد المتخصصين المتميزين في المدارس الوضعية سانسيمونية كانت أم كونتية أم ماركسية أو تطويرية ، بالإضافة إلى تخصصه الأكاديمي في علوم الإنسان الأساسية : السوسولوجيا والسيكولوجيا والأنثروبولوجيا الاجتماعية .

وتعتبر موسوعته العالمية في هذه العلوم الثلاثة من الموسوعات الهامة في صياغة مضامين علم الإنسان ، كما أن نظريته مع أعضاء من الأكاديمية الفرنسية وعلماء آخرين عالميين عن السانسيمونية والمراهنة الصناعية في خمس مجلدات وبخاصة المجلد الخامس عن المراهنة الصناعية وأزمة الحضارة التي تعتبر من الإضافات المهمة في تقنين مسيرة حضارة الغرب ومصيرها .

ولعل القائمة الواردة في نهاية هذا الكتاب تعطي للقارئ نظرة شمولية عن اهتمامات هذا المفكر العالِم الذي لم تشغله تخصصاته الأساسية عن تقديم ما يزيد عن اثني عشر مؤلفاً تهتم بطريقة أو بأخرى بالعالم العربي الإسلامي أحدثها ما قدمه عنه خميس البكري وأشرنا إليه سلفاً عن "قضايا تراث المسلمين " .

فمؤلفات الدكتور رشدي فكار تربو على الـ ١٤٠ بين كتب وأبحاث ودراسات أغلبها بالفرنسية أساساً أو بالإنجليزية وبعضها بالعربية وعالجت هذه الدراسات مواضيع متعددة من الفكر الاجتماعي وعلى سبيل المثال مدرسة توسكان الاجتماعية في إيطاليا وروسيا قبل أحداث أكتوبر واسترنبرج والمجتمعات الاسكندنافية واليسار الهيجلي وعلاقته بالفكر

الفرنسى وأصداء الفكر الاجتماعى الأوروبى فى أمريكا اللاتينية بما فى ذلك حركة الأرجنتين الشابة وانعكاسات الفكر الوضعى فى المكسيك وارتداد الفكر الاشتراكى فى الولايات المتحدة الأمريكية فى القرن التاسع عشر بما فى ذلك تجربة الايكورى لكاهيه وهى أول تجربة شيوعية فشلت فى الولايات المتحدة وهيجل والفكر الوضعى فى أسبانيا وأثر الفكر التقدمى فى المشرق وانعكاسات المدرسة السانسيمونية فى الخلافة العثمانية من مصر حتى الجزائر إلى جانب دراسات أخرى عن الاستمولوجيا والتقنين المعرفى والمنهجية .

وكان أول كتاب صدر لمفكرنا الكبير الدكتور رشدى فكار بالفرنسية عام ١٩٥٥ عن دار النشر العالمية " أوربان ميزونيف " بباريس ويعالج "نظرية القلق والفرج بعد الشدة" لدى مفكرى الإسلام ، ثم تابع المؤلف إنتاجه فى علوم الإنسان وبخاصة السوسولوجيا والسيكولوجيا والأنثروبولوجيا الاجتماعية . إلى جانب أصول النظريات الوضعية فى القرن التاسع عشر .

ولم تشغل مفكرنا المعروف هذه التخصصات الأساسية له عن اهتمامه بانتمائيه الفكرى وحضارته الإسلامية الأصيلة فوضع مؤلفاً مهماً بعنوان "تأملات فى الإسلام " بالفرنسية ، كما اهتم بأصول العلاقات الثقافية بين الغرب والعالم العربى .

وقد حاول الدكتور رشدى فكار أن يطرح فى العديد من مؤلفاته معيارية لعلاقة العلم بالدين باعتبار أن الدين أسمى من العلم ولا يمكن أن ينزل إلى مستوى المضاريات العملية والمخبرية لأنها مضاريات تتغير بتغير الأزمنة فإن كان ولا بد من فتوى فليس العلم صاحبها ليحتكم إليه فى صلاحية الدين أو عدم صلاحيته وإنما العكس فى أغلب الأحيان صحيح . فالدين له الحق ممثلاً فى الإسلام وهو خاتم الرسالات وبه أكمل الدين الشامل وله كامل الحق إذن أن يتدخل ليحتكم إليه فى مدى

صلاحية العلم إنطلاقاً من دوره فى البناء الصالح للإنسانية كما أن له الحق أن يتحفظ على مسيرة علوم تتبنى التدمير والقهر وتعميم التلوث والاستغلال باسم الهيمنة والسيطرة .

ولم تقف اهتمامات الدكتور فكار عند حد ما أشرنا إليه سلفاً من موضوعات لمؤلفاته بل تصدى فى العديد من دراساته الأنثروبولوجية الاجتماعية لظواهر التغميض كالسحر والتخاطر وذلك عبر معيارية علمية ارتكزت على الممارسة الذهنية وتوظيف وسائل وطرق البحث بعيداً عن كل مجازفة أو مغالاة أو عفوية .

ومن أحدث المؤلفات الجديرة بالإشارة لمفكرنا الدكتور رشدى فكار "المعجم الموسوعى العالمى من أربع أجزاء " كما أشرنا سلفاً بثلاث لغات فى ثلاث تخصصات علمية هى الإنجليزية والفرنسية والعربية عن السوسولوجيا والسيكولوجيا والأنثروبولوجيا الاجتماعية عن دار النشر العالمية " جتنير " بباريس ، وهذه الموسوعة العالمية تعالج مضامين علم الإنسان فى محاوره الثلاثة : الإنسان كنتاج تراثى تقاليد وعادات وأعراف وهى الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، والإنسان فى علاقاته البيئية كمؤثر ومتأثر وهى السوسولوجيا ، والإنسان كأغوار شعورياً ولا شعورياً وهى السيكلوجيا . وفى كل مضمون كان المؤلف يواجه معطيات هذا المضمون كما قدمته حضارة الغرب بما يستقى من حضارة الإسلام ليصل إلى المضمون الشامل للإنسان ، فمثلاً مضمون الدين طرحته الحضارة الغربية إنطلاقاً من نشأته فى الأديرة وغيرها وغاصت به فى ضباب التجريد واللاملموس لكى يتواجه ويتجاوز فى عصر النهضة بعد أن تحرك العقل وتمرد لنصل بعد ذلك إلى البديل وهو فلسفة الإنسان محاولة أن تقنن الدين كمرحلة تاريخية تأزمت وحوصرت مع إقلاع الضغوط العلمانية لكى تأتى المدارس الوضعية وتصفى الحسابات كل بطريقته مع هذا الدين ، وجودية غير إيمانية كانت ، أم ماركسية أو

تطورية أو فرويدية الخ .. هذا مضمون الدين فى مناحيه الأساسية لدى حضارة الغرب المعاصرة . إن الدين بالنسبة لهم نسق مضلل ظل ألف عام يغمض ويحتكر الإفتاء فى كل قضايا الإنسان وما حوله . وجاءت ثورة العقل الإنسانى لتضع حداً له وتعطى البدائل فى انتظار قدوم الإنسان الخارق المتحلى بأخلاق السادة " نيتشه " ؟

أما فيما يعنى مضمون الدين فى حضارة الإسلام فليس هناك تصفية حسابات أم ثأر لأن هموم الغرب من الخطأ أن تعمم لتصبح هموم البشرية . فحضارة الإسلام تعنى ألف عام من الإشراق أو يزيد ويقدر ما يتنكر أو يلتزم بها صاحبها وحاملها بقدر ما ينتكس أو يشرق . فإشراق الدين فى حضارة الإسلام كان هو المنير لمسيرة بشرها وبه تستنير . وهكذا كان الحال فى بقية مضامين علوم الإنسان عبر هذه الموسوعة العالمية والهامية للدكتور رشدى فكار .

فمفكرنا العالمى الكبير بحق يعتبر منظراً متعدد الحيشيات بنزعته الحوارية كما هو متفرد فى تكوينه ومسيرته وتأهله وعطائه فهو من ذوى الحضارتين ، حضارة الإسلام وحضارة الغرب ، فليس بالمتطفل على حضارة الإسلام فهو منها وإليها ، وليس على حضارة الغرب بالدخيل فهو المتخصص فى أصولها ومنابعها والمقنن لمسيرتها .

واليوم حينما نقدم هذا المجلد الخاص بنهاية عمالقة فى حضارة الغرب إنما نقدمه من موقع التخصص والاختصاص والتأهيل والموضوعية أعدناه للقارئ العربى وعلى مختلف مستوياته فقد جمع بين دقة الالتزام بالأسس العلمية والرغبة فى المخاطبة بأسلوب مبسط ومباشر وعرض متناسق لم يغفل الواقعة أو الحدث كما لم يتجاوز التقنيين بالانفعال والمجازفة فكنا بالتالى أوفياء لمفكرنا بقدر وفاءنا بتعريفه بهؤلاء العمالقة .

إن حضارة الغرب وهي تقدم الآن الإنسان النموذج في نهاية هذا القرن بانجازاته علماً وتكنولوجية وتصنيعاً يقتدى به ويقلد في سلوكه بل ويحاكي في اختياراته يتطلع اليه الإنسان الآخر كغاية للحياة المثلى وتتأثر به الأجيال جيلاً بعد جيل في تربيتها ولو على حساب أصولها وتراثها . فحينما نقدم هذا الكتاب عن نهاية عمالقة في حضارة الغرب إنما نسعى من بين ما نسعى إليه أن يبرز إلى أي حد يمكن تقنين هذه الحضارة ما لها وما عليها من خلال عظماء مفكرها ومن ثم نوعي شباب أمتنا ليستنير ويأخذ طريقه المتميز معتزاً بتربيته ، فمن هذه الزاوية كان تقديمنا لهذا الكتاب بالعربية وهو في حد ذاته إثراء لمكتبتنا التربوية الإسلامية .

إن الحضارة الغربية ارتكزت أساساً سواء في عصر الأنوار والمعرفة أو في عصر البدائل عبر القرن التاسع عشر وأصدائه في القرن العشرين هي حضارة رد الاعتبار للإنسان كما يزعمون .

الإنسان هو المحور . الإنسان هو الغاية والهدف . الإنسان القادر الذي يطمح في التعامل مع المستحيل .

هذه الحضارة من الخطأ أن ينظر إليها على أنها حضارة الوسائل والأدوات تكنولوجية كانت أم صناعية تجريباً أو تطبيقاً بل هي حضارة الإنسان المتمرد ذو الوعي الشقي الذي قرر القطيعة مع كل ما يغمضه أو يعرفه مبتدأً بالقطيعة مع اللاهوت والميتافيزيقيا والفكر التجريدي مستبدلاً قراءة الطبيعة والإنسان كنصوص ويتشريح الطبيعة كظواهر توطئة لتشريح الإنسان مستغلاً في ذلك ما اكتسبه من امكانيات منهجية في إطار الاختبار والتجريب وما تراكم لديه من معرفة فضلاً عن النضوج الفكري الذي لم يلد فجأة وإنما نتيجة لإسهامات مختلف الحضارات السابقة وعلى رأسها حضارة الإغريق وحضارة الإسلام .. وهكذا تعاونت عوامل مختلفة لتؤهل حضارة الغرب الحديثة إلى ما هي عليه الآن من

عطاء سائد وهيمنة واقتسام للكون عبر شقيها ، فالأم واحدة .
الليبرالى والماركسى .. اندفعت هذه الحضارة بقيادة عمالقة وما أكثرهم
سواء فى إرهاباتها الأولى ومدخلها عبر القرن الخامس عشر والقرن
السادس عشر بل وما قبلهما أو فى نزوحها وتراكمها عبر القرن السابع
عشر والثامن عشر ليأتى القرن التاسع عشر مسجلاً مرحلة جذرية فى
عملقة هذه الحضارة ، فكل ما سبقه آل إليه وما نحن فيه الآن صدى
لدفعه وعطاءه . ولهذا فالقرن التاسع عشر فى حضارة الغرب هو القرن
المحورى الذى لا يمكن أن يتجاهل كمركز لهذه الحضارة ، ففيه ولدت
المذاهب الكبرى واكتشفت القدرات التى لعبت دوراً هاماً فى دفع الصناعة
واكتشاف البخار والكهرباء ، وخطأ التجريب العلمى الذى لا يمكن أن
تُغفل إنجازاته فضلاً عن أنه العصر الذى يمثل الازدهار للهيمنة الغربية
على الكون فى صور شتى متعددة فى وسائلها ولكن فى مجملها تعنى
السيطرة والتحكم .

فحضارة الغرب لا شك أنها غنية بعمالقتها وفى كل المجالات ،
وحينما نقدم نهاية لعمالقة فلا نعنى بالضرورة أننا نطرح كل العمالقة
وإنما نقتصر منهم على ما شامت أقدارنا - على حد تعبير مفكرنا الكبير
الدكتور رشدى فكار - فى أبحاثنا أن نتعامل معهم ونتجاوز عبر ما
قدموه من فكر خلاق وإنجازات أصداؤها تتردد فى كل مكان ونعنى بذلك
عمالقة فى علوم الإنسان متكاملين مع نماذج على سبيل المثال لا الحصر
من أرضيتهم الأساسية ونعنى بها فلسفة الإنسان تاركين لغبرنا أن يقدم
نماذج أخرى من عمالقة التجريب والعلوم الطبيعية . والرأى لا يأتى إلا
من احترام الرأى الآخر .

عمالقة من محترفى المضاربات الكبرى على مستوى الاستراتيجية
الكونية وهؤلاء يؤذن لنا أن ننتعهم بعمالقة القهر المنضبط ظاهره الرحمة
وباطنه العذاب لا يتورع حينما يعجز سيفه الظالم أن يلجأ لكل وسائل

الغش المحسوب والزيف المستتر ، هؤلاء ندعهم كمضاربين لمن يضارب عليهم كما ندع عمالقة التجريب العلمى فى حضارة الغرب ، ولهم منا على عكس عمالقة القهر كل إجلال وتقدير فهم بما قدموا من اكتشاف للقوانين ونجاح فى التجارب المخبرية ثروة يعتز بها الإنسان فى كل مكان ..

وعلى ضوء هذا التحديد الذى أردناه - كما يضيف الدكتور رشدى فكار - "سوف نطرح على التوالى عمالقة من حضارة الغرب فى علوم الإنسان وفى أرضيتها الأساسية وهى الفلسفة وغايتنا من هذا الطرح ليس التعريف بهذه النماذج من العمالقة فمن يريد أن يتعرف على حياتهم تفصيلاً ما عليه إلا أن يتعامل مع مصادرهم ومراجعهم وما أكثرها ، وإنما الغاية تكمن فى أن هؤلاء العمالقة من الخطأ أن يرقى بهم إلى درجة التقديس والقداسة فهم بشر لهم لحظات الإشراق عرفوها ، كما أنهم خاضوا وحل المعاناة وحتى الأعماق . تحدوا وبوعى شقى معلنين صيحة الإنسان وفى غمرة التحدى تداخل معهم الاستكبار بل والتكبر والإنكار وغاب عن المتحدى حتمية قوانينه . ليس فقط بيولوجياً وإنما معرفياً فمهما كانت المعرفة فستظل نسبية أمام ما لا يعرف ، وصدق الحق سبحانه وتعالى حين يقول : «وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً» (١) . سوف نتحاور مع هؤلاء العمالقة وبهذه ورزانة بعيداً عن المجازفة والانفعال والعنف أو الإشفاق" .

وسوف نركز أساساً بعد أن نقدم فكرة عن كل عملاق - كما حدد لنا الدكتور رشدى فكار إطار العرض - على نهايته وقد كانت له تجربة سابقة فى دراسة بالفرنسية تحت عنوان "نهاية العمالقة" قدمها فى حينها وفى إطار محدود أملته طبيعة التوثيق كما خضع لإطار زمنى محدود حيث استفاد من تعامله مع عملاء التنظير الاجتماعى فى الغرب عبر تخصصه ليقدم هذه الدراسة عن نهايتهم فى حينها وهم على التوالى :

(١) الإسراء : ٨٥ .

"سان سيمون . أوجيست كونت . كارل ماركس" والثلاثة ينتمون اجتماعياً كما هو معروف إلى "المدرسة السانسيمونية" بشكل مباشر أو غير مباشر . ف"سان سيمون" هو مؤسس للمدرسة و"أوجيست كونت" كاتبه ومنظر للوضع فيها بعد وفاته و"كارل ماركس" - كما أشار الدكتور رشدي فكار في مؤلفاته - ما هو إلا "هيجلي مسنسن" أي "سانسيموني" أو "سانسيموني مهيكل" ويضاف إليهم الرابع وهو "هربرت سبنسر" الذي تأثر بطريقة مباشرة أو غير مباشرة بالمدرسة السانسيمونية كما اعترف بذلك في مؤلفاته عبر "أوجيست كونت" ، هذا بالإضافة إلى "ماكس فيبير" المنظر الاجتماعي المعروف الذي لا يمكن أن يتجاهل عبر واقع المباشرة في التنظير الاجتماعي بين ماركسية ماركس التي تأثر بها وبين ليبراليتها التي آل إليها .

وفيما يعنى حدود العرض كما بوضع لنا مفكرنا الإسلامى الدكتور رشدي فكار أنه اليوم وبلغتنا الجميلة نقدم هذا الكتاب موسعاً ما أمكن من حقل العمالة بما يتناسب واتساع الزمن الذى عبر منذ دراسته لهم بالفرنسية والتي قدمت من قبل فيضيف إلى العمالة نماذج أخرى ودائماً فى إطار علوم الإنسان وفلسفته كأرضية أساسية لها مثال "نيتشه ، سترندبرج ، سارتر" والقائمة طويلة لمن يريد التفصيل .

لهذا نكتفى بهؤلاء على أن ننهى العرض بتساؤل : هل هى نهاية عمالة أو عمالة النهاية ؟

ونعنى بذلك مآلية الأزمة إما المأزق أو التفجير والانتحار ، ولم لا التجاوز والتجانس والانسجام إنطلاقاً من الذات ليؤول فى إطار من الإيقاع الذى يتناسب مع عملاق لينحني إجلالا لله تحت راية الإسلام .

ولنبداً من البداية مع رائد التنظير الاجتماعى فى حضارة الغرب لا نتيجة لتعدد عطاءاته فى مختلف اهتمامات الإنسان وإنما لتعدد وتنوع

تأثيره وأصدائه عند من حملوا الراية بعده من العمالقة في حضارة الغرب
ونعني بذلك "هنري دي سان سيمون" فمن هو هذا العملاق وما هي
نهيته ؟

وهذا هو موضوع الفصل الأول من هذا الكتاب بعد عرض مدخلي
يحمل عنوان تساؤل مبدئي هو " وعن حضارة الغرب يتساءلون " .

سيد أبو دومة

* * *

عرض مدخلى

وعن حضارة الغرب يتساءلون

• تمهيد :

إن القضية التى اخترناها للحوار فى هذا المجلد تعنى نهاية عمالقة فى حضارة الغرب . ومن الطبيعى قبل أن نتحاور مع مفكرنا الكبير حول هؤلاء العمالقة أن نعطى تمهيداً عن هذه الحضارة التى تسود الكون حالياً بشقيها الليبرالى والماركسى على حد سواء ، فكلاهما غربى الجذور والمنابع ، وبوسائل الغرب يسيطر ويهيمن ، ونعنى بذلك التقدم العلمى والمنهجى ، المعرفة التكنولوجية ، التطبيق الصناعى ، حضارة الغرب ، أهى معجزة أم هى استمرار لمراحل سابقة لها تمخضت بل ونضجت من خلالها ، بعد أن آلت الشعلة إلى أوروبا التى كانت بصدد البحث عن الإنسان الذى صدرته الأنسقة الكنسية ، وألفت فيه قدرة الخلق والإبداع بعد أن علقت بين الضباب وتركته يلهث تحت ثقل الأساطير والخرافات والفكر التجريدى وشطحات الميتافيزيقيا . فسقط على الأرض باحثاً عن وضعيته وذاتيته ؟

إنه لمن الخطأ أن ينظر إلى هذه الحضارة على أنها خارقة وشاذة ومتميزة .. إلى غير ذلك من النعوت التى سعى البعض إلى النفخ فيها وتضخيمها تئيساً للآخرين حتى يخامرهم القنوط ، وتضعف فيهم الهمم ، فيقبلون بقناعة سيادة الغرب التى لا تقهر ، وصولجانه الذى لا تحدده حدود ، حضارة الغرب ليست معجزة ، وإنما هى مرحلة من مراحل تاريخ الإنسانية ، نعبرها اليوم للأسف فى موقع المسود لا السائد ، بعد أن كنا وخلال ما يقرب من ألف عام محوراً رئيسياً من محاور الكون ومصدراً أساسياً من مصادر إشراق الإنسانية وإشعاعها .

حضارة الغرب فى منابعها وجذورها وإرهاصات الأولى ، لا يمكن

بحال أن تعزل عن حضارة الإسلام الماثلة فى هذا التراث المتكامل الإيقاعى الذى استطاع أن يغطى المعارف الانسانية المختلفة ، فضلاً عن إعطائه الأولوية للغاية المثلى له كفكر . ونعنى بذلك السهر على الأصول المجسدة فى عقيدة الإسلام قرآناً واجتهاداً من السلف إلى الخلف ، وظف إمكاناته ليس فقط فى إطار التخصصات الأصولية وإنما وظفها أيضاً فى اللغة نحواً وصرفاً وبلاغة وأدباً وشعراً ، ثم تكامل هذا العطاء مع ما أملت امتدادات الإسلام بتراث الآخرين ، وكيف أن العقل المسلم لم يتعجز ويتعنت وينطوى ، وإنما تفاعل وتعامل مع نتاج الآخرين وتقاليدهم وعاداتهم وأعرافهم ، إلى جانب استئناسه لما قدمته حضارة الإغريق من منطق وعقلنة .

تراث المسلمين فى كل هذه الأبعاد مكن دورتنا الحضارية من أن تتصدر وأن تعطى فى كل المجالات ، تسهر بغيرة على الإسلام كما تشجع العقل على التفتح أيضاً فى مجالات الفنون والعلوم والعمران . نتذكر هذه الدورة العملاقة ونحن بصدد حضارة الغرب فى إرهاصاتنا ومنابعها ، لأن هذه الحضارة فى جذورها تغذت عبر قنوات ثلاث : قناة المواجهات الصليبية ، وقناة صقلية حيث كانت قنطرة جسر بين مشرقنا والغرب ، تعبث الأفكار تجاه الشعوب اللاتينية ومنها إلى بقية شعوب أوروبا . وقناة ثالثة وأساسية وهى قناة الأندلس ممثلة فى عمالقه من ابن رشد إلى جانب ابن حزم إلى ابن طفيل والقائمة طويلة . فلا يمكن بحال أن تعزل حضارة الغرب فى جذورها عن تغذية هذه القنوات لها ، ليس فقط فيما يعنى رد الاعتبار للإنسان ومشروعية فكره وجدارة عقله بأن يعلل ويسبب ويبحث ويشرح دون أن يتنكر للسماء . لقد كان المعيار الذى تحركت من خلاله حضارتنا أن الوحي والعقل لا يتعارضان ، بل العقل فى خدمة الوحي لأن الذى أوحى هو الذى خلق العقل ومن عليه وكرمه بالعلم ، هذا المعيار لم تقف أصداؤه عند حد الباحثين عن الإنسان فى ركام المصادرة والإلغاء الكنسى ، وإنما الكنيسة فى حد ذاتها ممثلة

فى قديسيها وعت بهذا الإيقاع والتناسق بين الوحى والعقل ، كمثل القديس "توماس الاكوينى" الذى تأثر فى هذا المضمار بأفكار ابن رشد وما حوله . وهكذا أسهمت الحضارة التى انبثقت من الإسلام وتحت رايته فى وضع الأسس لحضارة الغرب . نذكر هذا وبكل تواضع وموضوعية مصداقاً لقول الحق : "ولا تبخسوا الناس أشياءهم" (١) .

حضارتنا لم تقف عند حد التنوير لدروب وممرات العصور الوسيطة المظلمة الأوروبية ، وإنما أعطتها الاستنارات الأولى وفى مختلف الجبهات من اكتشافها لأبوتها الإغريقية الرومانية ، فشرح فلسفة الإغريق أساساً وفى غالبيتهم من شيوخنا ، من ابن سينا والفارابى والرازى حتى ابن رشد . إلى اكتشافها أيضاً لقدرات العقل سواء لمعرفة الطبيعة أو الإنسان . فمن ينكر أو يتنكر ، يجهل أو يتجاهل هذا النتاج الإسلامى الذى ترجم جانب كبير منه إلى اللاتينية انتحالا بمعنى ترجمة المخطوطات دون الإشارة فى العديد من الأحيان إلى مؤلفها ، وإنما تعتمد إسقاطه ، أو تحاشى ذكره ليس فقط فيما يعنى الفلسفة والإنسانيات ، وإنما فى علوم الطبيعة والرياضيات كان لنا العديد من الأسماء القادرة التى أخذت الشعلة من أياديها لا ليحملها أبناؤها وأحفادها ، وإنما ليحملها الآخر ، نذكر "البيرونى" و "جابر بن حيان" و "الحسن بن الهيثم" ، كما نذكر "الرازى" ، و "ابن سينا" وغيرهم ، وغيرهم الكثير فى الفلسفة والإنسانيات ولم لا الفلك والكيمياء والطبيعة والرياضيات ، مخطوطات من هنا ومن هناك انتحلت باللاتينية لتشكل أرضية من بين الأرضيات التى جسدت أساس بناء حضارة الغرب . يذكر دائماً لـ "فرانسيس بيكون" أنه كان شغوفاً بالمخطوطات ، بل تعتبر خزينة مخطوطاته من أكبر الخزائن فى البلاط الإنجليزى آنذاك ، فهو قد كان من المقربين فى البلاط ومن النبلاء ، "فرانسيس بيكون" هذا الذى يشار إليه فى القرن السابع عشر ،

(١) الأعراف : ٨٥ .

وبالتحديد سنة ١٧١٩ حينما قدم الأداة فى التجريب العلمى ، وصنف المعرفة والعلوم ، وكان هذا تاريخاً هاماً من تواريخ الدفع الأول لحضارة الغرب المعاصرة . الذى جاء بعد اجتهادات "روجى بيكون" راعى الكنيسة قبل ذلك بما يزيد عن قرنين لي طرح الملاحظة والتجريب ، وبيشروا بفجر جديد لمعرفة الإنسان ، هذا الفجر الذى امتد إشعاعه ، واتسع ضيائه مع "فرانسيس بيكون" الذى أشرنا إليه ، وفى فترة لم تتجاوز بضعة أعوام كانت مؤلفات "ديكارت" وفى نفس عصر "فرانسيس بيكون" وقرنه وعبر فترة لم تتجاوز عشرين عاماً ، ارتكز العقل على التجريب مصدراً للملاحظة ، كما ارتكز على التنهيج والتسلسل المنطقى فى استيعاب الظواهر وهكذا عرفت البشرية صفحة متميزة تتلو الصفحات السابقة لإشراق العقل الإنسانى ، هذه الأمانة التى كرم الله بها بنى آدم ، كما اصطفى من بنيه الأنبياء والرسل ، وبرز الحكماء والفلاسفة ، وذلك فى إطار الاحتكام أساساً للعقل الكامل الذى لا يخطئ بالنسبة للمؤمنين والقانعين بنور الهداية وحوار السماء بجانب السماح لهذا العقل أن يستدل وأن يقيس انطلاقاً من المسلمات بفرضياتها وتعريفها وبديهياتها ، كما استلهم "أرسطو" فى منطقهِ الصورى "الأرجنون" ، هذا المنطق الذى استدلّت البشرية باستدلّاله أو تحت تأثيره فيما يتجاوز العشرين قرناً من الزمان ، يتأمل العقل ليستنير بقدرته ليكمل الطريق دون تنكر لقدرة القدرات المثلثة فى حوار السماء ، ومن تنكر وأعرض عن ذكر الله متباهياً بعقله ، معانداً ومستكبراً كثيراً ما قاده هذا العقل - وهو أساساً جاء للاستنارة - قاده إلى الظلمات والطريق المسدود . كما سنلاحظ فى هذا الغربى الذى انتفخ مغروراً بقدراته الذهنية ، باستثناء من عرفتهم حضارة الغرب كفلاسفة مؤمنين مثال "باسكال" ومن سار على نهجه ، أو اختار طريق مراهنته مروراً بـ "جبرائيل مارسلين" حتى "جان كيتو" المعاصر . تيار محدود يدافع عن الزمن والخلود ، وتركت ساحة الغرب للعقول المحتجة والمتمردة بوعيتها الشقى لتصول وتجول وتلمى على

البشرية مراهنة رهيبة بعد أن قطعت الحوار مع السماء ، وأدارت الظهر لنوره وهدايته ، وأرادت الحياة الدنيا ، فكان مبلغهما من العلم .

ولكن حضارة الغرب ، وعنهما يتساءلون ، كيف وصلت إلى هذا الحد من القطيعة مع أنها انطلقت في إرهاباتها الأولى في تردد ووجل متسائلة حول مصادرة فكر الإنسان وتغميضه ، متحفظة على هذا التجريد له ، وأنه قد آن الأوان لهذا الإنسان أن يوقف نصيبه لذاته وللطبيعة على حد سواء ، الطبيعة نصوص والإنسان نصوص تؤخذ ظواهرها كمسلمات ثم عن طريق القياس والاستدلال بـ "إذا" يكون "فعليه" ، هذا الإنسان وهنا نعود لنأخذ بخطوط استمرارية آثار التجريب العلمى والمنهج الكارتزىانى ، وكلاهما نضج فى القرن السابع عشر ، إلى جانب تيارات أخرى ، تشكلها مدارس نقدية وفلسفية ودعاة إصلاح وتطوير ليس فقط فى مجال الكنيسة مع المحتجين الحركة البروتستانتية لوثاريين أو كلفانيين ، وإنما إصلاح المجتمع برمته كما بشر بذلك دعاة التعاقد الاجتماعى من "هوبز" و "لوك" و "جان جاك روسو" ، وإصلاح العقل وترويضه عبر فلسفة التاريخ والفلسفة الاجتماعية ليعمق فلسفة الإنسان ويعطى لها حق التعليل والسببية ، فأضيفت أسماء وأسماء من حملة مشعل هذه الحضارة يتناوبون ويتكاملون كل فى موقعه من "مونتاسكيو" و "لايبنتز" و "كانت" و "سبينوزا" ، إلى جانب المثاليين من "كامبنيلا" إلى "مور" حتى "ماكيافيل" مروراً بممرات الاجتهاد فى طبيعة العلاقات الإنسانية ، وتربية السادة والأمراء ، وحقوق الشعوب ومصائرها ، فضلاً عن تشجيع التعرف عليها بالاكشافات ، فكان العالم الجديد وكان الدفع فى كل اتجاه ، وتبلورت عصور الأنوار ، وتصدر المعارفيون بدواثرهم ، وهكذا تحولت صيحات التحفظ بل والتساؤل المتردد إلى موجات الاحتجاج والمطالبة بتصفية الحسابات مع المسئولين عن مصادرة الإنسان والتطلع إلى البدائل ، بدائل التحنيط والتجوير والانغلاق ، واندفعت حضارة الغرب بالإنسان ليندفع بها إلى كل الأجواء لتعلن حضورها وفى

كل الساحات ، وهنا نصل بهذه الحضارة التي عنها يتساءلون إلى نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن الذي يليه ، فترة زمنية من المخاضات لم تتجاوز القرنين من الزمان . ولكنها كانت مكثفة في عطاياها ، واثقة من دفعها واندفاعها ولو بثمن غال يتمثل في جريان أنهار من الدماء ، الثورة الفرنسية الكبرى والمواجهات الدموية التي شهدتها أوروبا كجسد لا تخلو خطواته من المجازفة والمغامرة في سبيل استعادة الذات . وكانت الحركات الاجتماعية التي يقودها الإصلاحيون والمثاليون ، بل ولم لا الميدانيون من دعاة العمل المباشر ، والمواجهة مع قلاع الترسيب وما تبقى منها من آثار تعرقل خطوات هذا الانسان المارد الذي لم تقف به طموحاته عند حد إصلاح داره ، وإنما وبشهوة مفتوحة لا تقل الافتراس ، تطلعت تيارات ، منها ما تحرك تحت راية المغامرة ، ومنها ما تحرك تحت شعار الثأرية والقصاص ، ونعنى بذلك التيارات التي مثلت المد الاستعماري الذي آل في نهاية المطاف مع مشارف القرن العشرين إلى تقاسم العالم بين الإمبراطورية التي لا تغيب عن أرضها الشمس ، بريطانيا العظمى المنتفخة ، وفرنسا التي أخذت بدورها نصيباً رئيسياً في القارة الإفريقية ، والآسيوية ، وبقي للبرتغال وإيطاليا وهولندا وألمانيا رغم تصدرها في الغرب ما تبقى من مائدة بريطانيا وفرنسا ، وحتى روسيا القيصرية بدورها وجدت لها متنفساً فيما يحيط بها من أراضى الغير ، وكل يفترس أو ينهب أو يغزو أو يحتل بطريقته ، يختار ما هو مناسب محاولاً ألا يزعج كثيراً ما تبقى من الذئب حول المائدة ، مائدة ضحايا التخلف وغيبة الوعي بما هو مستجد في العصر وبالتالي افتقاد التعبئة لمواجهة هذا المارد الغربي الذي كان من أهم ضحاياه ما عرف بالجسد المريض آنذاك وهو سريع في افتراسه لضعفه وتفككه ، ونعنى بذلك العثمانية ببابها العالي الذي أصبح يرمز إلى الانتكاس والهزيمة والتراجع ولم يبق له من العلوم إلا الاسم ، وفتحت شهية الغرب بما أفضى على حضارته وكانت في منطلقها لتحرير الإنسان العديد من التساؤلات حول

مدى التزامها بمبادئها الإنسانية ، أم هي في النهاية انسانية في دارها ولا إنسانية للآخرين . هذا التناقض أبرزه المفكرون المثاليون في الغرب عبر القرن التاسع عشر حينما أعلنوا وفي أكثر من مناسبة صيحة الاحتجاج أمام سيف الاستعمار المتسلط على الأبرياء ، وكانوا بدورهم يتساءلون : أمن أجل هذا جاءت حضارة الغرب ، لتتسلط على الآخرين وتهيمن وتحول الكون إلى ساحة يتقاسمها السماسرة والباحثين عن الأرباح باستغلال الإنسان لأخيه الإنسان ، لا الباحثين عن إعلاء الإنسان بمساعدته لأخيه الإنسان ؟ وخير مثال يذكر في هذه المناسبة صيحات السانسمونيين الفرنسيين أمام جنرالات فرنسا ، وهم يسفكون دماء الأبرياء في مغربنا العربي ومشرقنا ، وحتى الفكر المثالي والإنساني الإنجليزي بدوره تقبل بمرارة استغلال وطنه لأوطان الأبرياء الآخرين وخصوصاً الهند ، وحتى بين دعاة الاستغلال وأدعياء التحضر المزيف لم يستقر الحال ، فكانت الحروب بين من أخذ نصيب الأسد ومن ألقى إليه بسواقط المتاع ، حرب فرنسا وألمانيا التي انتهت بسقوط الإمبراطورية الفرنسية في بداية السبعينات من القرن الماضي (القرن التاسع عشر) ، ثم ما تم في منتصف الثمانينات من هذا القرن من اتفاق بين الاستعماريين المستغلين ، وارتضى بينهم كمعيار لا أخلاقي لامتنعاص خيرات الشعوب المغلوبة على أمرها ، هذا المعيار هو "من يملك فعلاً يملك شرعاً" . وهكذا تحول المد الاستعماري إلى أمبريالية متجانسة ولو شكلياً ، وقسمت مناطق الضحايا "هذا لك وهذا لي" كما تم من اتفاقيات بين فرنسا والمجترات في بداية القرن العشرين لتفتت أمتنا بين محتل إنجليزي ومحتل فرنسي ، ولقد حاولت الحركات الوطنية التي كانت تنطلق دائماً من بيوت الله مبشرة باستعادة الهوية باستعادة الذات ، وألا كبرياء ولا عظمة إلا لله . وبالتالي لا يمكن أن تُعزل الحركات الوطنية في أمتنا العربية المسلمة عن صيحتها المعبئة "الله أكبر" . وشاركنا في نفس المصير ما يحيط بنا من مجتمعات إفريقية وآسيوية وحتى أمريكا اللاتينية ، ومع هذا أيضاً

لم يرض المغتصب بما اغتصب ويكتفى بما أخذ ، وإنما بدأ كل يتطلع ليأخذ شيئاً من تحت أقدام الآخر ، فالقوة فى النهاية هى المرجع والإحالة . فكانت الحرب العالمية الأولى ، ثم فترة استراحة بين الطامعين لاستعادة الأنفاس ، ثم الحرب العالمية الثانية التى أكدت لنا مصداقية وصحة ما تنبأ به مفكرو القرن التاسع عشر من الإنسانيين والمثاليين سانسيمونيين وغيرهم حينما أعلنوا أن حضارة الغرب لإعلاء الإنسان لا استغلال الإنسان . ولكن كما أشرنا شهية الربح والاستحواذ والكسب باسم الافتراس والاستيلاء ، شجعت الاكتشافات والتقدم العلمى والتطبيق الصناعى والمعرفة التكنولوجية على التوسع فى ذلك بمشروعات كبرى تطمح لاستغلال الخيرات ، ليس فقط ما فوق الأرض وإنما ما فى باطنها من ثروات منجمية وخصوصاً المعدنية والبتروولية فى الصدارة ، هذه المشروعات الكبرى التى احتوت أيضاً مد القنوات - السويس - وبنا - لتسهيل التجارة وحركة التنقل والاستغلال فضلاً عن السكك الحديدية وبنوك القروض التى أسهمت فى انتشار وتصدير مردودية رأس المال ، استغلال فى كل مكان ، رغم صيحات التحدى له والتواجه معه فى كل الساحات . فسالت أنهار من الدماء فى قلب الغرب كانتفاضات لمن عانوا من ثقل القهر والطغيان عبر القرن التاسع عشر ، كما سالت أنهار من دماء الشهداء وأبطال مواجهة الاستعمار بقدر ما كان زحف المستغلين ثقيلاً ومكثفاً ، بل وخانقاً فى بعض مناحيه ، بقدر ما كانت المقاومة له رهيبة وغاثية ، لم تقمع بالاحتجاج والاعتراض وإنما بوسائلها المتواضعة وإمكاناتها المحدودة ، لم تجد ما توقف به هذا الزحف إلا تكتل أجسادها عارية من كل شئ إلا من قناعتها بمشروعية حقها فى الحياة أو الاستشهاد . وعن حضارة الغرب يتساءلون . يتساءلون عن إنجازاتها التى استطاعت أن تحقق رقماً قياسياً من حيث اختزال الزمان والمكان وتراكم المعرفة والخلق والإبداع فى العلوم التجريبية لظواهر الطبيعة وعلوم الإنسان . وأصبحت من خصائصها المتميزة

وسماتها البارزة لتخصص وتوزيع العمل ، والارتكاز على التقدم العلمى والمنهجى ، وتبنى المعرفة التكنولوجية فى التطبيق الصناعى .

وارتكزت بذلك على العقلنة والتسلسل المحسوب والانضباط والتنسيق والتنظيم وأفرزت لها كقدرة تؤمن بها سيطرتها وهيمنتها كحضارة سائدة مستودعاً رهيباً من أسلحة التخريب والترهيب والدمار : ذرية وهيدروجينية وبكتيرية بيولوجية ، كما أفرزت ما تغطى به وتخدر أعصاب المتوترين الخائفين على مصير البشرية والمتخوفين من نهاية المراهنة فى هذه المعادلة الصعبة وذلك بزعمها أن كل هذا التقدم لصالح البشرية ويعطون أمثلة بما حقق فى مجال التقدم الطبى والوقائى للإنسان وما حقق أيضاً فى مضاعفة مردودية خيارات الطبيعة بحسن استغلالها عن طريق التكنولوجيا المتطورة وما أدخل على المواصلات برياً وبحرياً وجوياً من وسائل الراحة والاختزال للأمكنة وتقريب المسافات وما أنجز حضارة لا يمكن بحال أن يغفل هذا الجانب من الإنجازات فهو يحسب لها وبحق ولكن يحسب العديد من السلبيات وفى مطلعها غياب إنسانية الإنسان .

هذا الإنسان الذى من أجله وبه كانت حضارة الغرب وباسمه أعلنت القطيعة مع التغميض وتعرية الخرافات والأباطيل والأساطير ، لثفك أمر الإنسان من تسلط الضلال وتعلن حضوره كمحور للوجود منه وإليه . فإذا بها فى النهاية بعد أن فكت ما زعمته الأثرى بالنسبة له ، تسقط به فى أعماق ضلاله من داخل الذات ، فبقدر ما تكشف على ما يحيط به من ضلال وقع فى النهاية أسيراً لضلال نفسه ، حينما أدار ظهره للسماء ونادى بسقوط أى فلسفة ما عدا فلسفة الإنسان ، وصدق الحق سبحانه وتعالى حين حدد لنا فى هذا المضمار المآل بقوله : « ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد . كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله »^(١) . لقد تحرر الإنسان من شياطين الآخرين

(١) الحج : ٣ ، ٤ .

فإذا به يقع أسيراً لشیطان نفسه يتعالى ويستكبر ويطفئ ويتمرد ، وغاب عنه أن ما توصل إليه من معرفة ما هو إلا تكرم من خالقه شريطة ألا يطفئ به ، وقد كانت الآية الكريمة الأولى فى القرآن الكريم التى حددت لنا الغايات الكبرى ، لمحيط الإنسان ومعرفته ، فجعلت قسماً من المعرفة لا إذن به إلا من الخالق بانفراده بالخلق ، وذلك معرفة الغيب عالم الغيب : «اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق» (١) . ثم تكرمتم على الإنسان أن يقرأ هو فى عالمه تكراً من الله ويستجديه أن يزيده علماً وطلباً له ، كل هذا شريطة ألا يطفئ ويتنكر لمن وهب له نعمة المعرفة ، يقول الحق : «اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم . كلا إن الإنسان ليطغى . أن رآه استغنى» (٢) . هل وصلت حضارة الغرب بالإنسان إلى مستوى الطفیان فى قراءته ؟ أم أن ما نعيشه فى نهاية هذا القرن ما هو إلا شطحة من شطحات الانبهار بعد السباحة فى الفضاء والتنزه فوق القمر ، ليعود الإنسان مرة أخرى منحنيًا ومتواضعًا أمام خالقه شاكرًا له سامي تكريمه ونعمائه عليه . وهذا يدفعنا مع المتسائلين حول حضارة الغرب كيف أن دفعة من دفعات الغرور والاغترار حينما تجاوزت الحدود الموضوعية لها آلت ببعض إلى الانهيار وبالبعض الآخر إلى الجنون أو الانتحار ، ولم لا ؟ هناك من آلت به إلى التدهر والارتداد الواعى ، والتراجع نحو مسيرة الحق بعد أن تكشف له التزحلق نحو الضلال ، وفى هذا المضمار كان الحوار الذى مهدنا له بهذا العرض : وعن حضارة الغرب يتساءلون ، مع المفكر العالمى والمنظر الإسلامى الكبير الدكتور رشدى فكار ليتناول فيه نماذج من هذه الفئات التى تجسد شريحة من شرائح عمالقة الغرب ، على سبيل المثال لا الحصر نقدمها متتالية فى فصول مبتدئين بـ "سان سيمون" .

* * *

الفصل الأول

سان - سيمون

عميد من عمداء منظري حضارة الغرب

لنتحاور أولاً مع سان سيمون الإنسان قبل أن نتحاور مع نهايته كعملاق ، الإنسان هذا النبيل الذي نشأ في العائلة المالكة بفرنسا وترعرع بين الأمراء ، هذا الإنسان المفكر الذي استطاع أن يترك بصماته على ما يسمى بقدرات العقل الغربي ، صاحب الحضارة السائدة حالياً بشقيها الليبرالي والماركسي . فمن "سان - سيمون" ومن غيره كانت منابع هذه الحضارة التي ارتكزت على الإنسان مفجرة للكامن من طاقاته مرة باسم الخلق والإبداع ، وأخرى باسم التمرد ، وثالثة باسم الوعي الشقي ، ورابعة باسم بدائل الإنسان لكل ما هو تفضيض والتباس وتجنيط .

سان - سيمون كلود هنري دي روفيرا ، الكونت سان - سيمون ، ولد في ١٧ أكتوبر ١٧٦٠ بمدينة النور بباريس ، وهو ابن عم الدوق الشهير "سان - سيمون" رجل البلاط الفرنسي وصاحب المذكرات الشهير ، ومع هذا فإن كان الدوق اكتسب شهرته من بلاطه ، فـ "سان - سيمون" الذي يعيننا بنى المجد بالعقل والعطاء ، هذا النبيل "هنري سان - سيمون" كم كان عجباً منه أن يقول لخادمه وهو ما زال طفلاً : "لا توقظني كما هي العادة بالنسبة للآخرين ولكن عليك حينما تريد إيقاظي وبوضوح قائلاً : "استيقظ سيدي الكونت ، إن هناك عملاً عظيماً ينتظرك وإلا ما استيقظت أبداً " . وكذلك نراه في الثالثة عشر من عمره حينما اصططحبه والده ليعمد كبتية النبلاء في الكنيسة رفض وبسخرية مما أساء العلاقة بينه وبين والده ومع هذا لم يغفل تربيته وسهر على ما تبقى من طفولته حتى ذهابه في سنة ١٧٧٧ ليشترك متطوعاً باسم الحرية في حرب الاستقلال التي كانت تقودها الولايات المتحدة الأمريكية آنذاك ، وشهد حصار

يورك (شارك فيه) وأبلى فيه كذلك فى معركة بريستون وقد ساد الاعتقاد أنه قتل فى هذه المعركة التى واجهت الأميرال "كراس" بالأميرال "رودنى". ومن ثم هذا الفتى المتشبع بالمثل العليا برهن لأسرته على أنه ليس فقط نبيلًا بلقبة ، وإنما نبيلًا بخلقه بعد مشاركته هذه ، اتجه إلى المكسيك حيث أهله انتماؤه للأسرة المالكة فى فرنسا كى يلتقى بنائب ملك المكسيك الذى اقترح عليه قناة تربط المحيطين بما مهد فيما بعد لما يعرف بقناة "بنما" ولكن فى وقت "سان - سيمون" كان هذا مستبعداً وعاد إلى فرنسا ليصبح فى الثالثة والعشرين من عمره عقيداً فى الجيش وربطته صداقة بـ "مونج" ، ولكنه ترك الجيش ومل حياة الثكنات العسكرية واحلاً إلى هولندا ثم إلى اسبانيا حيث مرة أخرى تعود إليه أحلام القنوات ليقتراح حفر قناة تربط مدريد بالبحر .

وحينما وقعت أحداث ١٧٨٩ المشهورة وعبر دمويات الثورة ارتضى "سان - سيمون" لنفسه أن يتحاشى المواجهات وأن يقبع فى ركنه مع أنه قد شارك فى ثورة الجمهورية وتحررها فى أمريكا ، أما فى فرنسا فكان كل ما فعله "سان - سيمون" فى البداية أن أعلن تنازله وعلق به واختارته جماعة من السكان ليكون رئيساً لمجلسهم البلدى وهى جماعة "فال - فى" . ولم يحاول "سان - سيمون" أن يشارك فى الصراع بل اهتم بالجوانب الإنسانية والمشروعات والعمل فى الأسواق المالية ، ولكن الشبهات بدأت تحوم حوله وكانت هى شعار هذه الفترة الرهيبة من تاريخ فرنسا "الكل مشبوه حتى إشعار آخر" عصر "رويسبير" ، فألقى به السجن وقبع فيه حتى نهاية "رويسبير" .

وفى ١٧٩٧ افتتح "سان - سيمون" صالوناً فكرياً له فى باريس يلتقى فيه الأدباء والعلماء والفنانين وتلقى به المحاضرات مجانياً وحرص على أن يكون صالوناً كصورة مصغرة للمدرسة الهندسية التى كانت تقع فى مواجهة صالونه ثم اهتم بالتجارب الفيزيولوجية ، وكل هذا على نفقته

وارتبط بعلاقات حميمة مع قادة الفكر آنذاك أمثال "كبنيس" ، "بيشيه" ، "بلان فييلا" ، "جان بانيس" سيه" رجل الاقتصاد الشهير من أتباع "آدم سميث" وغيرهم الكثير ثم انتقل إلى مقر آخر أمام مدرسة الطب بباريس . مزاوولا لنشاطه الفكرى ومستمرأ فيه . وفى ١٨.١ كان مشروع زواجه الذى لم يعمر طويلا مع الأنسة "دى شان كران" واستقر فى شارع "فيفينا" وجعل من دار الزوجية صالونا فكرياً متميزاً فى باريس حيث كان لقاء الفكر بين العلماء محيطاً إياهم بكل مظاهر الرفاهية والراحة حتى يقدحون قريحتهم ويقدمون له الدرر فى النقاش ولكنه تأسف للنتائج المتواضعة التى أسفرت عنها هذه التجربة حيث قال : "ضيوفى من العلماء يأكلون كثيراً وبدلاً من أن يتكلموا من أفواههم يتكلمون بأصوات خفية من أماكن أخرى" ؛ . ولعل هذا أدخل على آمال "سان - سيمون" القنوط فلم ينته العام إلا وقد كان طلق رفاقه وزوجته ورحل إلى جنيف باحثاً عن البديل حينما سمع عن غانية القصر وفى نفس الوقت رائدة ومنبع الحركة الرومانطيقية فى أوروبا "مدام دى ستايل" صاحبة "شاتوكوى" أو "مدام كوى" فى ضواحي جنيف ، وكان والدها وزير المال لملك فرنسا "نكير" عشية الثورة الفرنسية ، أما هى فكان منتداهها قبله عقول أوروبا شعراء وأدباء وعلماء . وكفى أنها ليست فقط منبع الحركة الرومانطيقية فى الأدب كما أشرنا وإنما المرأة التى تحدث الإمبرطور نابليون بوناپرت مؤلبة عليه أوروبا وانتهى به المطاف إلى مأساة واترلو .

ومرة أخرى يعانى "سان - سيمون" من خيبة الأمل كما عانى فى تجربته الزوجية الأولى ، لم تعره مدام ستايل اهتماماً ولم تستجب لرسائله ، "وقد قمنا بنشر المراسلات هذه غير المعروفة منذ سنوات" (مجلة الدراسات الأدبية والفلسفية).

ورحل بعد ذلك "سان - سيمون" إلى إنجلترا وألمانيا . وفى ألمانيا كان الانطباع لـ "سان - سيمون" أنها ما زالت فى خطوات الطفولة بساحة العلم وأن التفكير فيها غير واضح وطابعه الغموض .

واستمرت حياة عملاقنا واستجد حدث جدير بالتسجيل كما أشار إلى ذلك في مؤلفه "سيرة حياتي" أنه وقد تجاوز الأربعين واكتملت تجاربه ومعاشته لكل ظروف الحياة وعلى كل المستويات والطبقات الاجتماعية فقد عاش نبيلاً بين النبلاء وانتهى فقيراً بين الفقراء قرر أن يكتب فكان أول نتاج له يحمل عنوان : "رسائل من مواطن في جنيف إلى معاصريه" . وقد أهدى كتابه المحدود في نسخه إلى "نابليون بونابرت" حيث كان يميل "سان - سيمون" إلى طابع لا نقول الديكتاتورية وإنما الانضباط والنظام ، كما أهدى نسخاً أيضاً لامبراطور روسيا وبعض قادة أوروبا . ونشر هذا النتاج الأول سنة ١٨٠٢ واستمر نشاطه الفكري والإنتاج المكثف من هذا التاريخ وحتى ١٨٢٢ حيث مزج البؤس والمعاناة مع قدرة الخلق والإبداع ، لقد عانى "سان - سيمون" صحياً كما أن الحياة تراجعت به إلى ما تحت الكفاف وعمل في حرف متعددة من نساخ ليلي يتقيأ الدم في برودة الشتاء القارس وكم كان غريباً أن هذا النبيل الذي كان يصر في طفولته ألا يستيقظ إلا حينما يناديه "ديار" خادمه : "استيقظ سيدي الكونت إن هناك عملاً عظيماً ينتظرك" ، وانتهى هذا النبيل ليعمل خادماً لقد عرض نفسه على "ديار" الذي أصبح صاحب ورشة للنجارة ، فاحتضنه وجعله في ورشته يعمل ما يستطيع ، ومع هذا استطاع "سان - سيمون" أن يصر على أن يصل برسالته إلى نهاية المطاف فحققت له بعض أبحاثه جانباً من الشهرة في عالم الفكر والعلم وبدأ الأتباع والمريدون يحيطون به وعمل كاتباً له "تيري" بعد أن استطاع عملاقنا أن يجد عملاً متواضعاً في أرشيف "الأسنان" كمساعد مكتبي بفضل علاقة كانت تربطه بـ "كارنو" ولكن مرة أخرى وكأنه على موعد مع المعاناة تنحى نابليون عن امبراطوريته وسقط معه كارنو وفقد "سان - سيمون" عمله ومع هذا استمر في عمله الفكري وفي سنة ١٨١٦ تعاطف بعض المفكرين في فرنسا معه في شكل منحة مؤقتة كمساعدة وفي ١٨١٧ التحق "أوجيست كونت" به ككاتب له وخلال سنوات سبع يساعده بعد أن انصرف "تسيري" إلى التاريخ تاركاً لـ "كونت" التأملات الفلسفية

مع أستاذه وإصلاح المجتمع ، ومن الغريب أن فترة المعاناة عند "سان - سيمون" هي كانت فترة المعاناة والفقر المادي هي كانت فترة الإشراف والإثراء الفكرى . واهتم فى (١٨١٩ - ١٨٢٢) بإصدار جريدة يغذيها بأفكاره ، ولكن سريعاً ما عاود "سان - سيمون" التأزم وصاحبته الأزمة فكانت محاولته الرهيبة التى تمت فى ١٨٢٣ - وسوف نركز عليها فى الفصل الثانى . والتى نخصصها لنهاية عملاق على ما حدث فى ١٨٢٣ وما تلا ذلك حتى ١٨٢٥ وبالدقة فى ١٩ مايو ١٨٢٥ حيث انطفأت شمعة عملاق . ونعود لحياته لنعرف بأن "سان - سيمون" كان متعدداً فى نتاجه الفكرى وإسهاماته دون منازع ، بل استطاع أن يغذى كمنبع تنظير حضارة الغرب وعلى كل المستويات من مذهب الصناعى إلى تنظيره للمجتمع الدولى والأوروبى إلى رأيه فى فلسفة القرن التاسع عشر ومقدمته لعلم الإنسان حتى نظريته الأخيرة فى مسيحيته الجديدة واضعاً الأسس فى مؤلفاته ليس فقط لارتقاء المجتمع بفضل الإبداع والتطور عبر المشروعات الكبرى ، وهذا ما لعب دوراً رئيسياً فى ازدهار الرأسمالية فى حضارة الغرب أو ما قدمه كأسس للعدالة والحد من الاستغلال وتنظيم المجتمع مما جعله بحق كما يقول "دوركايم" : أباً لكل التيارات الاشتراكية بما فيها الماركسية إلى جانب أبوته لهذا العلم القادر فى علاج المجتمع ونعنى به السوسولوجيا فضلاً عن تغذيته لاتجاهات فكرية ثلاثة فى مدرسته ، وقد نشر نتاجه ونتاجها فى ٤٧ مجلداً ، هذه الاتجاهات يرمز إلى الاتجاه الأول خليفته "أونفونتا" وهو رائد من رواد المشروعات الكبرى فى القرن التاسع عشر : حفر القنوات ، شبكة السكك الحديدية فى العالم ، المناجم ، نسق القروض البنكية ، وكل ما أسهم فى ازدهار الرأسمالية الغربية ، واتجاه ثان يرمز إليه "أوجست كونت" تأسست من خلاله الفلسفة الوضعية ونضجت السوسولوجيا كعلم اجتماعى متميز ، واتجاه ثالث يسارى جمع بين دعاة العدالة الاجتماعية إلى جانب المناضلين فى الجمعيات السرية والمسئولين عن ثورة ١٨٤٨ فى فرنسا مروراً بـ : "كارل ماركس" و "بلاتكييه" حتى "كافى" ومغالاته

التي جعلته يصل إلى حد الزعم في مؤلف له يحمل عنوان "المسيح" وأبراه الله من ادعائه هو الشيعي الأول على الأرض وتجاربه التي تحمل اسم "ايكوري" الضيعات الجماعية التي حاول من خلالها تطبيق النظام الشيعي وغيرها الكثير من التيارات التي تغدت بطريقة أو بأخرى من هذا العملاق "سان - سيمون" ومدرسته كـ "قورييه" و "برودون" في فرنسا ، حلقات موسكو في روسيا بريادة "هيرزن" و "أوكريف" ، ومدرسة "توسكان" بإيطاليا وفي ألمانيا واسكندنافيا بل وحتى أمريكا اللاتينية ، وخصوصاً مشرقنا ومغربنا العربيين المسلمين حيث كانت هناك أصداء واسعة في القرن التاسع عشر لأفكار "سان - سيمون" وبخاصة أتباعه ، هذا العملاق كيف انتهى ؟ كيف كانت نهاية عملاق بهذا الحجم وبهذا الثقل المتعدد العطاء ؟ وهذا موضوع الفصل التالي عن نهاية عملاق .

* * *

الفصل الثانى

ومع سان - سيمون ونهاية عملاق

عملاق بدأ نبيلاً بين النبلاء وانتهى فقيراً ككل الفقراء "سان - سيمون" الذى يعتبر مع مدرسته منجماً خرجت منه ذخائر الفكر تنظيراً وتقديراً وعلى كل المستويات الاجتماعية ، هذا المفكر الذى وإن كان فى لقبه "كونت" ، "سان - سيمون" عمه يتلقب بـ "الدوق" فقد فاق شهرة هذا العم صاحب مذكرات البلاط الفرنسى المشهور وأصبح يذكر ، ليس فقط حين التحدث كما رأينا عن أبوة الاشتراكية الحديثة أو المذهب الصناعى ، وإنما أيضاً حينما يشار فى عصر الازدهار الرأسمالى فى القرن التاسع عشر حيث المشروعات الكبرى السانسيمونية قد لعبت دوراً أساسياً فى هذا الازدهار "سان - سيمون" الذى رحل هنا وهناك مرة مجاهداً وأخرى مغامراً بين أمريكا ومروراً بالمكسيك إلى أسبانيا وألمانيا وهولندا . "سان - سيمون" الذى ما تردد أن يشير فى سيرة حياته أنه كان يكتب ويتقيأ الدم وهو فى مستوى الكفاف فى فترات الأزمة وضيق اليد ، وما أكثر هذه الفترات فى حياته ، كيف انتهى هذا العملاق ؟

نقف قليلاً مع حياته ثم نسير معاشين لها بهدوء ابتداء من السنوات الثلاث الأخيرة من عمره (١٨٢٢-١٨٢٥) عادت الأزمات والضيق المادى يحاصره وفى نفس الوقت وهو فى حصاره يكشف عطاء الفكرى وكأنه فى إسقاط لعمومه يجد منفذاً من خلال قنوات ذهنه ليعبر عن هذه الهموم لا بتبنى التدمير والهدم ، ولكن الخلق والإبداع ، فهناك مشروعات ومشروعات وعلى رأسها إصدار صحيفة تحمل مذهب وأفكاره بصفة عامة هنا وهناك ، وفى هذا الخضم يقدم ، "سان - سيمون" العملاق على تجربة أقل ما توصف به أنها تجربة غريبة ، "سان - سيمون" يطلق على رأسه ست رصاصات وتحمل واحدة منهن عينه معها وهى خارجة ويبقى "سان - سيمون" أعور بعين واحدة حتى وفاته خاملاً هذا الأثر

لتجربة غريبة ولكنها مريّة . هناك من يتجه من الشراح لسيرته الذاتية أنها انتحار فاشل لعملاق . فضل أن يضع حداً لحياته من أن تضع هي حداً له . فيأخذ منها فضل السبق باستدعائه للموت لا استدعاء الموت له . كما كرر ذلك فيما بعد عملاق آخر - "نيسشته" - حينما قال : " أنا لا أنتظر الموت يفاجئني بحضوره حين بغتة ولكنني أستدعيه في الوقت المناسب" .

"سان - سيمون" لدى فئة أخرى من الباحثين في سيرته يربطون هذه التجربة المريّة بالفضول العلمي الرهيب لهذا العملاق . فهو كما أشرنا من قبل كان من المهتمين بعلم وظائف الأعضاء : "الفيزيولوجيا" بل إنه أطلق على العلم الجديد الذي دعا له ، بل كان من أول الدعاة له وهو العلم الذي عرف فيما بعد بالسوسولوجيا أعطى له "سان - سيمون" كتسمية الفيزيولوجيا الاجتماعية . فالفيزيولوجيا كانت من اهتمامات "سان - سيمون" وربما دفعه فضوله ليتعرف على وظائف المخ وكان كثيراً ما يتناقش مع رفاقه ومريديه حول وظائفه ، ولعله أراد أن يختبر معرفته بهذه الوظائف ولكن بطريقة عملية محزنة . لقد خرج "سان - سيمون" من هذه التجربة ليحمر بعد ذلك ، ويعين واحدة يقرأ بها ويكتب ليقدّم لنا نتاجه الأخير "المسيحية الجديدة" وقد كان معروفاً عن "سان - سيمون" في كتاباته من قبل أنه كاستمرارية للمعارفين وعصور الأنوار وبخاصة كونت "دورسي" جاهر بعدائه للكنيسة وقرده عليها حتى في طفولته حينما رفض التعميد وحمل عليها حملة شعواء في مختلف كتاباته باعتبارها المسئولة والمدانة ، ليس فقط عن مصادرة العقل وإنما بكل بساطة مصادرة الإنسان . ولكن هل يعنى هذا أن "سان - سيمون" بدوره تبني مصادرة المصادر وإلغاء الكنيسة التي ألغت الإنسان وبالتالي إلغاء من تمثله وهو الدين والإله .

في الواقع ، الكتابات الأخيرة لهذا العملاق بعد تجربته الرهيبة والحوار

الفريد الذى تم بينه وبين أتباعه ومريديه وهو يحتضر ويلفظ الأنفاس الأخيرة يؤكد لنا أن نهاية العملاق ارتدت به وبوعى عما دافع عنه فى فتوته الفكرية وتبناه ، فهذا "سان - سيمون" الذى يعلن فى سنواته الأخيرة أن العلم والدين لا يتلاغيا - أى كل يلغى الآخر حتى يبقى - وهنا نسترجع الكلمات الأخيرة لنهاية هذا العملاق "سان - سيمون" المحتضر لم يتركه أتباعه ومريديه أن يعبر اللحظة الأخيرة دون أن يعلن رأيه بوضوح حول هذه القضية : العلم والدين .. ونهاية عملاق ، وهذا الذى يعنينا فى الصدارة عبر هذا الحوار أيضاً . كيف انتهى "سان - سيمون" وموقفه من الدين ؟ يقول "سان - سيمون" ما معناه (من يريد التفصيل يراجع المجلد الأول من مؤلفنا "السوسيولوجيا الاشتراكية الدولية لما قبل الماركسية : تأثير سان - سيمون) : "القضية بين العلم والدين لا تكمن فى تحديد من يختفى لبقى الآخر ، وإنما كيف يتعاون العلم والدين لإسعاد الإنسان والمجتمع باعتبار أن الدين تراث الإنسان ومجتمعه والعلم مستقبله وأهله . إذن العلم والدين كلاهما ضرورى للإنسان وعليهما أن يتعاونوا لما فيه إشراقه وإشعاعه واعتزازه بإنسانيته وتطلعه لغد أفضل .

نهاية هذا العملاق الذى منه أقلعنا فى حوارنا هذا المتواصل وهو ليس بعملاق بين العمالقة ، وإنما هو رائد بين الرواد لعصره ولما استجد بعده . نهاية هذا العملاق تؤكد لنا أن العالم المفكر بقدر ما يتبحر ويغوص متفتحاً وسابحاً حتى الأعماق يكتشف أنه ما أوتى من العلم إلا القليل وأن ما توصل إليه من معرفة لا يقارن بما يجهله وما تبقى عليه أن يعرفه فى عمره المحدود ويشعر أنه حينما يقترب بنتائجه فيما اعتقد أنه محدد ومحدود يبدأ فى جولة اللامحدود والذى لا تحده حدود فيرى جهله بما تبقى من حقائق الأشياء وأعمق مما تعرف عليه وعرفه ، وهنا لا يملك إن كان نزيهاً مع ذاته إلا أن يعلن التواضع فى ارتداء واع لما ألقى به فى فترة الفكر وفى حماس العطاء وهذا ما فعله "سان - سيمون" شأنه فى

ذلك شأن غيره من بقية العمالقة الذين اخترناهم كمجرد غاذج في علم
الإنسان وفلسفته عبر هذا الحوار المتواصل الذي سوف ينقلنا الآن إلى
علاق آخر لنتحاور معه وهو الامتداد الأول لـ "سان - سيمون" ونعنى به
كاتبه وتابعه ومريده رائد الفلسفة الوضعية الذي ألحقت باسمه ونعنى به
"أوجست كونت".

* * *

الفصل الثالث

أوجيست كونت رائد المذهب الوضعي

مع أوجيست كونت في حوارنا المتواصل سوف نتشعب عبر مسالك هذا المفكر لنعطى فكرة عنه كإنسان وعن نتاجه كمنظر ، ونقف وقفة مفصلة ما أمكن في مشارف نهايته كعلاق وكيف أنه آل به مذهب الوضعي في نهاية المطاف إلى العرفان للإسلام والتعريف بدوره الحضاري الخلاق .

ازيدور أوجيست ماري فرانسوا كازافيه كونت المعروف بـ "أوجيست كونت" بزغ إلى الوجود عام ١٧٩٨ في مدينة مونبيليه بفرنسا ، بينما كان قرن فكري شامخ يلفظ أنفاسه ، ومجتمع فرنسي يهتز تحت عوامل التغير والتبديل .

ولد كونت سراً وكان المجتمع يتردد في قبوله ضيفاً (وربما هذا يفسر لنا الكثير من نظرياته فيما بعد ، الداعية لتأصيل المجتمع ، وصراحته وتقويم واقعده) لقد كان زواج أمه "فليسته روزالي" بأبيه سراً وتعميده سراً آخر فهو ابن أسرار ، حاول ما أمكن أن يقدمها كحقائق اجتماعية ، تشهد بحاجة الأسرة - وهي صورة المجتمع الأولى - إلى الإصلاح والتفهم ، لقد كانت أمه تكبر أباه بإثنى عشر عاماً ، وبالتالي تشكلت أسرته منذ البداية في شكل مائل أعرج ، فتطعم أوجيست كونت منذ طفولته الأولى بالمشاكل الأسرية ، وتعايش معها ما أمكن ، وساعده على ذلك عطف أمه وحنانها وتدينها فهي ترى في الدين مصدراً لكل شيء (وهنا نجد أول انطباع لما جاء فيما بعد أيضاً ، على لسان كونت من أن الحالة الأولى اللاهوتية في نظرية الحركية الاجتماعية تؤكد أن الدين مصدر لكل فلسفة ولكل علم) . من الأدب إلى الرياضيات ، ومن

الهندسة إلى الطب ، تنقل في دراسته وتشعب ، فجاءت واسعة متكاملة ، جعلت آفاقه الفكرية تتفتح في نظرة شاملة على المعارف الإنسانية ، قوى الذاكرة طموح متطلع له مقدرة وصبر على العمل . تقدم لأكثر من مسابقة فكان في الطليعة دائماً . خلف أساتذته في التدريس ، وتحمل المسئوليات العلمية وهو لم يزل في سن مبكر ، رحل إلى باريس ، ليستزيد من العلم في مدينة النور . واعتمد على نفسه ، فأعطى الدروس الخاصة إلى جانب المساعدة العائلية الضئيلة ، كي يستكمل تكوينه العلمي ، وأتيحت له الفرصة كي يتعرف مطالعاً ودارساً ومتتلمذاً على كبار عقول الفكر الفرنسي ، رغب في الرحيل إلى أمريكا ليكون أستاذاً للرياضيات ، ولكن شاعت الظروف أن لا تحرم فرنسا من هذه العقلية الجبارة ، فلم تحقق رغبته ، وبقي لفرنسا كنزها الفكري ليتفجر على أرضها ، تعلم الإنجليزية وحاول أن يترجم بها ، نهل من منهل العلم ومن أعماق الفكر الإنساني وتأثر بقطاعه ورواده وكان ممن تأصلت أفكارهم في فكره ومن تحركت آثارهم تحت قلمه "مايستر ١٧٥٤-١٨٢١" و "بوسيه ١٦٢٧-١٧٠٤" و "بونالد ١٧٥٤-١٨٤٠" و "كوندرسيه ١٧٤٣-١٧٩٤" و "هيز ١٦٧٩-١٧٥٨" و "هيوم ١٧١١-١٧٧٦" وخصوصاً أستاذه "سان-سيمون ١٧٦٠-١٨٢٥" الذي عمل كونت كاتباً له عدة أعوام (ولنا عودة خلال هذا البحث لتحديد بعض معالم تأثير "سان-سيمون" في أفكار كونت) .

لم تمنع حياة العلم والجهد كونت مع مرح موسمي ولهو فطري برئ ، غير أن اللهو قد تعرف بدايته ، ولكن في حالات كثيرة يصعب تحديد نتائجه وأبعاده ، وسقطت في طريق كونت غانية من غانيات الليل وعشاق حاناته ، وكأن الليل بظلامه حال دون تحديد معالم الرؤيا لكونت المرهف الرقيق ، فتوَعك في خطواته ، ودخل في تجربة مقلوبة ، معكوسة لزواج

أمه بأبيه ، فكان هو صورة لرقّة أمه وأصالتها وكانت زوجته على مستوى لامبالاة أبيه . وعاش كونت من جديد وفي شكل آخر مشاكل الأسرة في هذه المرة ، أسرته هو لا أسرة أبيه . فلقد تزوج كونت بها رغم معارضة عائلته ، وعكف على إقناع زوجته بأن تغتسل من جنابة اللهو ، وتتطهر من حياة الحانات ، كانت تجربة واقعية عملية ملموسة لكونت في إصلاح المجتمع ، مجتمعه الصغير (والذي منه أخذ النماذج الأولى لإصلاح المجتمع الكبير مجتمع الإنسانية) . فبدلاً من أن يجعل من منزله حانة جعله قاعة للمحاضرات ، وكانت أول محاضراته لمريديه عن الفلسفة الوضعية في إبريل ١٨٢٦ ولكن سريعاً ما أخذ الوهن طريقه إليه ، فلم تستطع الأهلية المادية الطبيعية لجسد كونت البشر الضعيف التكوين العضلي ، أن تكون على مستوى الأهلية الفكرية العقلية لكونت المفكر العملاق ، فانهار الجسد أمام قوة التفاعل الفكري العميق ، لقد حضر الأتباع والمريدون لسماع المحاضرة الثالثة في منزله فوجدوا الصمت خلف الباب المغلق وكأن الصمت بطول قامته واستمراره أوحى إليهم أن شيئاً ما قد حدث خلف هذا المسكن المتواضع ، حيث الكتب والطبخ والأكل ، والنوم والدرس ... يتعايشون وجهاً لوجه في هذا المكان الضيق العاري من كل شيء إلا من عظمة كونت وجبروته الفكري الأصيل - لقد حمل الأستاذ المعلم في رفقة أحد أتباعه من الأطباء إلى مستشفى للأمراض العصبية وحضرت الأم من مونيبلية ترتدى أعواماً بالينة تجرها من خلفها وقد تجاوزت السبعين بقليل ، لتعود به من حيث أتت ، وهنا تقف الزوجة - وقد عاد إليها بصيص من الرشد الموسمي - إلى جانب زوجها توليه الرعاية وتصر على أن يبقى في باريس ، ويعود إلى محاضراته سنة ١٨٢٩ في منزل متواضع بشارع "سان جاك رقم ١٥٣" ومع عودته أشرق فجر شهرته فحاضر في الأماكن المشهورة بباريس واستمع إليه جمع غفير في "قاعة الاتنية" ، وبدأت محاولات نشر أفكاره تتخذ طريقها إلى

الثقيلة وبشكل ملموس ، وعين مفاصراً بمنزلة الهندسة وحاول الدخول إلى "كلية فرنسا" الشهيرة كأستاذ لتاريخ العلوم الرياضية والطبيعية ، ولكن لم يمنع هذا التطور الإيجابي في حياة كونت المفكر أن تمر حياته بهزات وأزمات مادية ، فرغم عطف مريديه ومساعدتهم عرف كونت صعوبة البؤس والفاقة خلال فترات متتالية من حياته ، مما جعل اليأس يدب في قلب زوجته ذات الطباع المتغيرة المتقلبة فتخلت عنه في أغسطس ١٨٣٢ ، ازدادت حساسية كونت للهموم بفراق زوجته وصعبت عشرته ، واتجه به موكب الحياة إلى العزلة ، وأوشك على الانهيار ، بعد أن تصدعت معنوياته ، ولكن قيض الله له رجلاً محباً للعلم مفكراً عارفاً بقيمة الرجال ، فراسله من إنجلترا ، ووقف إلى جانبه وبدأ يعرف بآرائه وراء "المانش" إنه العلامة "جون ستوارت مل" ، ساعده في نشر إنتاجه ثم حلق بموكب المساعدين لكونت ، والمعجبين بعلمه ، والمقدرين "لفلسفته الوضعية" عالم كبير "ليتره" عضو الأكاديمية الفرنسية ، ولعب هذا الأخير دوراً كبيراً في ضمان استمرار كونت المفكر أو شعاع نظرياته ، فكتب "ليتره" عن كونت وعرف به وإنتاجه عن طريق الصحافة ، وكونت جمعية لمساعدة كونت ، وهي التي أصبحت نواة للجمعية الشهيرة "الجمعية الوضعية" . انقشع ضباب الفاقة قليلاً أمام شمس الشهرة ، واطمأنت نفس كونت المفكر ، وإن كان قلب كونت العاشق الرقيق ما زال عارياً ، منذ فراق زوجته ، وذات أمسية تعرف كونت على شقيقة لأحد أتباعه . إنها "كلوتلدا" زوجة فارقها المقامر إلى السجن نتيجة لثقتته في الميسر ورغبته في الثروة السريعة ، ذون مشقة أو عناء . كانت أديبة ، قصاصة ، رقيقة لحد الضعف لم تتجاوز الثلاثين ، تعلق كونت بها وتعلق الباحث في الصحراء عن جرعة من الماء ، وكانت مراسلات طويلة خلال عام ، غير أن المرض كان يشارك كونت في رقيقته فسلبها منه ، وهي بين ذراعيه في عشية يوم متقلب الأجواء من أيام إبريل ١٨٤٦ .

ومرت السنون العشر بعد وفاتها غنية بعطاء كونت واشعاعه ونتاجه المتعدد الذى انطلق به عبر تأملاته كمبحث باكورة لهذا الإنتاج وآخر عن حرية الصحافة وبعض التراجم الإنجليزية ثم فى ١٨٢٢ كان مخططه للأعمال العلمية الضرورية لتنظيم المجتمع ثم مؤلفه الهام الشهير "محاضرات عن الفلسفة الوضعية سنة ١٨٤٢-١٨٣٠" فى ستة أجزاء ، وهذا المؤلف يشكل ثروة فكرية لمن يريد التعرف على جوهر الفكر الكونتى (نسبة لكونت) ودوره فى تأسيس السوسيولوجيا (علم الاجتماع) ومع "حديث حول الروح الوضعية سنة ١٨٤٤" و "حديث حول كل أبعاد الوضعية سنة ١٨٤٨" تأكدت أصالة كونت ، وتحددت أبعاد فلسفته ، ومعالمها الخلاقة، ثم تبلور دوره التأسيسى للسوسيولوجيا أكثر فأكثر ، واتجاهه لروح الشمول ، والتخريج الإنسانى لسوسيولوجيته عبر مؤلفيه الهامين "قواعد السياسة الوضعية ١٨٥١-١٨٥٤" فى أربعة أجزاء و "التعاليم الوضعية سنة ١٨٥٢" ، ولم يتوقف إنتاج كونت عند هذا الحد فنشر له فى نهاية حياته "نداء إلى المحافظين سنة ١٨٥٥" و "تخريج ذاتى سنة ١٨٥٦" فى العام الذى توفى فيه ، هذا أهم ما جادت به قريحة كونت من إنتاج ومؤلفات جذيرة بالإشارة. ولنقف قليلا لنعطى خلاصة لما جاء عبرها بالنسبة لمفهوم "السوسيولوجيا" كنموذج من نماذج نظرياته المتشعبة المتعددة فى المعرفة الإنسانية لقد جاء تحديد مفهوم "السوسيولوجيا" عند كونت نتيجة طبيعية لتكوينه المتشعب ، ودراساته الواسعة فى العلوم الإنسانية ، والطبيعية ، وتأثره بنطاق حل عصره ، ومن سبقوه . كذلك كانت فترة اتصاله بـ "سان سيمون" هامة بالنسبة لتبلور العناصر الأساسية لنظرياته السوسيولوجية ، حتى أنه اعترف بنفسه حين قال : " ما أخذته عن سان سيمون فى ستة أشهر يعادل ثلاثة أعوام من العمل المنفرد " ، "السوسيولوجيا" عرفت عند كونت تحت تعبير علم "الطبيعة الاجتماعية" وهو تعبير استقاه من هوبيز

(Hobbes) واستعمله عبر الجزء الثانى والثالث من "محاضراته عن الفلسفة الوضعية" ، وذلك بعد أن تردد فى استعمال التعبير الأصيل الذى أطلقه سان سيمون على هذا العلم الجديد المولد ، وهو تعبير "الفيزيولوجيا الاجتماعية" وسان سيمون أيضاً من قبله تردد فى اختيار التعبير المناسب فمرة يطلق على هذا العلم الجديد التعبير السابق ومرة "علم الإنسان" ... ومرة تعبيرات أخرى كثيرة

وبالتالى فالفضل يرجع لكونت بالنسبة للناحية الشكلية الخاصة باختيار التعبير النهائى الذى أطلق ، واستمر حتى يومنا هذا ونعنى بذلك "السوسيولوجيا" فقد ابتكر كونت هذا التعبير من كلمتين لاتينية وإغريقية ، وأورده للمرة الأولى سنة ١٨٣٩ فى "محاضراته عن الفلسفة الوضعية" وأفرد لتحديده الجزء الخامس ، وما يليه من هذه المحاضرات . وعلى عكس ما يميل إليه بعض الباحثين ، وبعض أتباعه ومريديه ، لا نعتقد أن تغيراً جذرياً هاماً قد حدث فى اتجاهات كونت عبر مؤلفاته الأخرى التالية ، بعد ذلك ، أو أن نهاية كونت الفكرية تناقض بدايته ... كونت كل لا يتجزأ فى تطوره ، عرفت نظرياته مراحل متطورة متكاملة ولم تعرف مقاطع مبتورة متناقضة . كونت تأثر بالكثير من المفكرين قبلى جانب ما ذكرنا ، تأثر أيضاً بـ "تيركو" وبـ "ديدرو" و "فونتيل" وغيرهم ... واستوعب كونت الكثير من المعارف ، وعرف كيف يتجه بفكره إلى الأعماق . لقد نالت "السوسيولوجيا" على يديه ليس فقط اختيار الاسم وشكل العنوان ، وإنما محاولة جريئة لتحديد مفهومها ، لم تك بالطبع على نفس مستوى أساتذة سان سيمون المؤسس الفعلى لهذا العلم باعتراف "دوركايم" ، وكما تأكد بصفة لا تقبل الشك إلا عند أصحاب الاتجاهات النسبية ممن يقبل رأيهم "كاجتهاد شخصى" لا كتخريج علمى ملزم .

اتجه كونت فى تحديدده للسوسيولوجيا على أنها علم يولد التطلع والتطلع يولد العمل ، علم يدرس المجتمع الإنسانى بمعنى الإنسانية كشمول حقيقى ملزم للمشاركين فيه ... علم واضح ، وموضوع (هنا نجد تأثير سان سيمون) شامل بمعنى من الدين والمعنويات والتربية إلى المعرفة كعناصر منظمة ، بفضلها يتم التجانس الدائم والتلقائى للنظري والعملية والتطبيقات... علم بما فيه من سيطرة روح الشمول يفوق علم الرياضيات ... علم يحدد معالم المعرفة الجديدة التى تنظم العلاقات بين البشر على أسس تقنية حيث إن مجتمعات المستقبل مجتمعات صناعية تقوم على العلم وتعتمد على التقنية (هنا مرة أخرى كأن المتكلم سان سيمون وليس كونت فتأثير سان سيمون واضح فى التعبيرات الأخيرة من تحديد كونت لمفهوم هذا العلم) ... السوسيولوجيا علم يعكف على دراسة المجتمع قارياً وحركياً ، عبر تنظيمه ، وعوامل تقدمه ، وقارية المجتمع أو "القارية الاجتماعية" تتكون من أسس ثلاثة ، وحركية المجتمع أو "الحركية الاجتماعية" يكفيها "قانون أحوال ثلاثة" أما أسس "القارية الاجتماعية" فهى استمرارية الترابط الاجتماعى بمعنى ارتباط العنصر الاجتماعى كجزئية ببقية الجزئيات الأخرى ، وبالتالي يميل كونت إلى التفهم الشامل لكل معطيات الظاهرة الاجتماعية تلقائية التعايش الاجتماعى ، الحقيقة الاجتماعية بالتالى ، حقيقة تلقائية فهى توجد دون مخطط شخصى أو تدخل مشرع وعليه فالسلوك مثلاً محدد للقانون ليأتى هذا بدوره فيحدده بعد ذلك .. "الأسرة" كوحدة أساسية للمجتمع ، وعنصر اجتماعى نهائى له ، فهى الوحدة التى منها بدأ المجتمع وعلى نمطها يسير وإليها ينتهى فى الأسرة العالمية الإنسانية ، وبالتالي تدعيم المجتمع فى تدعيم الأسرة (يلاحظ محاربة كونت لظاهرة الطلاق كاستمرار لهذا التخريج) .

"الحركية الاجتماعية" هي نظرية التقدم ، كما أن "القارية الاجتماعية" تعنى "نظرية التنظيم" الحركية الاجتماعية يحددها كونت أيضاً بأنها علم الحركية الضرورية والمستمرة للإنسانية ، حاول كونت أن يكيف قانون التقدم حسب الذكاء الإنسانى الذى قاده من "الحالة اللاهوتية" بفتراتها الثلاث : وثنية ، فإشراك ، ثم وحدانية ، إلى الحالة الميتافيزيقية وهى بمثابة المترتب بالضرورة والالتزام على الحالة الأولى ، حين محاولة التخرير الديالكتيكى لأفكار كونت ، بمعنى الحالة الأولى تشكل (Thèse) والحالة الثانية الميتافيزيقية تشكل (Antithèse) على أن تأتى الحالة الثالثة وهى الحالة الوضعية فتكون بمثابة المآل أو الصيرورة بمعنى "التخرير النهائى" للحالة الأولى متفاعلة مع ما ترتب عليها بالضرورة والالتزام ، أى الحالة الثانية ، فالحالة الثالثة بالتالى هى التخرير فى ثالوثية الديالكتيك ونهجيته . الحالة الأولى طابعها خيالى تصورى ، والحالة الثانية طابعها تجريدى ، أما الحالة الثالثة فطابعها علمى ، الحالة الثالثة والأخيرة هى الحالة التى تسود فيها السوسولوجيا وتكيفها علمياً وتقود المجتمع إلى الشكل النهائى الذى هو حصيلة لكل تجارب الإنسانية مجتمعه حيث يتحقق مجتمع الأسرة الإنسانية ، هذه الأسرة التى سوف يرث جيلها كل ما آلت إليه التجارب والتغيرات الاجتماعية ، إنه الجيل الوارث للبقاء الأفضل الذى دفعت ثمنه شعوب الإنسانية فى سيرها الطويل .

لا شك أن كونت بتطويره حسب ما يرى لتحديد مفهوم السوسولوجيا قد وفق (هذا رأى نشارك فيه الكثير من الباحثين فى هذا الموضوع) فى محاولته توضيح مكانة السوسولوجيا من العلوم الاجتماعية الخاصة وكشفه لخصائص الحقيقة الاجتماعية التى لا مرأى فيها ، وذلك عن طريق شمولية الظاهرة وإن كنا نشارك جورفتش فى تحفظه على كونت حين تخرير شمولية على أنها معادلة للإنسانية . كذلك وفق كونت حين أكد أن السوسولوجيا تنمى ما حولها من العلوم وتقودها ، ووفق أيضاً

فيما أضافه من تجارب تاريخية ، وانتقافية لتأكيد ميدان
 السوسيولوجيا . ولعل أفضل ما يذكر لكونت (والرأى أساساً هنا
 لـ"جورفتش" وإن كنا نشاركه فيما ذهب إليه) أنه لم ينساق تحت تيار
 الرقميات الرياضية والتخريج الطبيعى رغم ضلوعه فى الرياضيات
 والطبيعات البحتة ، بل احتفظ "للسوسيولوجيا" بشخصيتها الأصلية ولم
 يجعل منها مجرد تكرار لغيرها . (وهذا ما وقع فيه كثير من
 السوسيولوجيين الانجلوسكسون حينما اتجهوا إلى مجرد الرقمية
 والإحصاء وجمع المعلومات فباتت السوسيولوجيا مجرد تكرار لعلم
 الإحصاء الاجتماعى وآلية جمع المعلومات فى بعض الأحيان أو نوع من
 الدراسات السوسيوغرافية لا أكثر ولا أقل وهذا ما أكدته العلامة سوركين
 (من عمالقة الاتجاه الانجلوسكسونى بعد هجرته إلى الولايات المتحدة) .
 ويذكر لكونت وبنفس التقدير ربطه لتطور المجتمع بما يبذل فيه من
 مجهودات عملية (إلا أن الفكرة الأساسية تعود لسان سيمون) ... هذا
 ما نذكره لكونت أما ما يؤخذ عليه فى تحديده لمفهوم السوسيولوجيا
 فنترك لـ"جورفتش" عد هذه المأخذ نخص منها - الالتباس عند كونت بين
 مفهوم "الفلسفة الوضعية والسوسيولوجيا" (كونت كما يراه "جورفتش"
 عبر هذه النقطة ميتافيزيقى شكلى مقنع ، يسيطر عليه الإبهام والالتباس
 الألوهى) قوله إن الطبيعة الإنسانية هى لا تتغير عبر التقدم ، كذلك
 رأيه الملتبس فى "الوجدان الجماعى" والعلاقة بين العلوم ، فهو على
 خلاف سان سيمون وماركس يتجه نحو "الشكلية" رغم نقده "للأسمية" بل
 يغالى فى اتجاهه هذا فيخلق فى عالم "التجريد" على أنه الواقع - غياب
 الديالكتيك الأصيل من عرضه ، رغم التطلع العفوى نحوه ، وإن كان
 "جورفتش" يذهب إلى أبعد من ذلك ، فيرى فى روح كونت أنها ضد كل
 ديالكتيك ، فكانت قد منع على نفسه حل المشاكل وتكييفها عبر
 المناقضات المترتبة عليها بالضرورة والالتزام رغم أنها تشكل الحالة

الثانية من قانونه ، وبالتالي جاء بفروض ، ولم يأت بتفريغ وحلول رصينة بالنسبة للحالة الثالثة - قصور في المنهجية عند كونت وعدم تحديد أصيل للمنهج الموضوعي ، والفرق بينه وبين المنهج النسبي ، كذلك عدم تحديده لطبيعة التداخل بين المنهجين ، من أن أحدهما قد يقود الى الآخر . فأزمات المنهج الموضوعي تقوده إلى النسبية ، وأزمات المنهج النسبي تقوده إلى الموضوعية - عدم اتضاح مفهوم الشمولية الاجتماعية لديه ، وتكيف مسطحاتها حتى الأعماق - حتى بالنسبة للتحديد بين قارى وحركى ، كان التحديد سطحيًا إذا ما قورن بالتحاليل الواعية عند أستاذه سان سيمون وربما سبب ذلك القصور الديالكتيكى عنده كما أشرنا - ميوعة تحديد مفهوم "استمرارية الترابط الاجتماعى" فقد غاب عنه أن استمرارية الترابط والبقاء الاجتماعى لا تكون دائماً نتيجة "للانسجام والالتقاء الاجتماعى" وإنما نتيجة لتفاعل المتناقضات المترتبة بالضرورة والالتزام (مثال : طبيعة النضال بين الجماعات الخاصة ، والتنافس فيما بينها) وأخيراً هذا المأخذ الذى قال به كثير من الباحثين فى "السوسيولوجيا الكونتية" بما فى ذلك المتحمسين لكونت والمدافعين فى بعض الأحيان ، ونعنى بهذا المأخذ ارتفاع كونت بـ "السوسيولوجيا" إلى مصاف الفلسفة الأساسية الأولى . إذ كما هو معروف تدرج بها من علاج المجتمع وإصلاحه ، إلى إدارته وحكمه وتنظيمه ، إلى تأليهه وعبادته فى النهاية فهو يعبر الخلفيات إلى السياسة ومن السياسة إلى الدين ... وفى النهاية لم يعد للسوسيولوجيا ما تقتات به على حد تحليل جورفتش . غير أننا وإن كنا نشارك فى هذا المأخذ من حيث المبدأ ، إلا أننا نرفض مغالاة جورفتش ، لقد ارتفع كونت بالسوسيولوجيا هذا حق ، ولكن هذا لا يعنى تعريضها عن كل منطوق ، وتفريغ لجوهرها من أساسه ، وإلا أين نضع توضيحات كونت وتأكيده لشخصية السوسيولوجيا . فتوضيح الشئ يستلزم وجوده ، وتأكيده أبعاده يستلزم وجود جوهره .

كونت لم يرتفع بجسد السوسولوجيا وجوهرها ، وإنما ارتفع بأهدافها إلى ما رآه أسمى الأهداف على ضوء طفولته وتكوينه الأول ، فلا يمكن أن نعزل نفس كونت عن فكرة ارتفع بأهدافها في وقت كان يعيش فيه باحثاً عن انفراج لنفسه ، في كائن أعظم ليكن الإنسانية جمعاء ، حينما قال كونت إن السوسولوجيا هي إنجيل دين الإنسانية . كان هنا يشير إلى حد ما إلى ذكريات (لا نقول عزيزة) ولكن هامة على أي حال ، بالنسبة لتكوينه ذكرياته مع سان سيمون صاحب "المسيحية الجديدة" ذكرياته مع المدرسة السانسيمونية كأحد المؤسسين لها. المدرسة السانسيمونية التي تحولت في فترة من فترات وجوده فيها إلى مدرسة لدين جديد ، خرج كونت منها محتجاً ليعود إليها بوجدانه جنوناً بعد سنوات حينما اقترب من المغييب. هذا الوجدان الذي قاده إلى معرفة حقيقة الأديان السماوية الكبرى ، والمحاضرات التي عرفتها شعوب هذه الأديان قبل التقرير والحكم ، شأنه في ذلك شأن معلمه "سان سيمون" ... هنا كان كونت حقيقة وفيّاً لأستاذه حينما قاده قدماء إلى هذا الطريق .

فكان تعرفه على الإسلام وموقفه منه ومن حملة مشعله الحضاري المضيئ .

* * *

الفصل الرابع

أوجيست كونت .. ونهاية عملاق بالعرفان للإسلام ودوره الحضارى الخلاق

صفحة رائعة ، وشهادة أصيلة للعرب كحملة للمشعل الحضارى الإسلامى ، ودورهم الخلاق فى تطور العلوم على مستوى عالمى ، جاءت على لسان قادة "الفكر الوضعى" وممثلى قمة الالتزام العلمى فى التخرج وعدم التحيز ، نعى بهما سان سيمون وأوجيست كونت ... صفحة رائعة مبهولة إلى حد ما بالنسبة لغير المختصين فى هذا النوع من التنقيب العلمى ، لتوخى الحقائق المجردة ، دون تطرف ، أو مغالاة : مدحاً ، أو نقداً ، تأييداً ... شهادة طابعها الاتزان ، شكلت عنصراً أصيلاً من نظريات سان سيمون "مؤسس السوسيولوجيا" الفعلى الحق - كما ذكرنا من قبل - بعد أن ظل تأسيس هذا العلم يلحق تجاوزاً باسم تلميذه وتابعه أوجيست كونت مبتكر التسمية ، نعم لم يؤسس سان سيمون فقط "السوسيولوجيا" فى مرحلتها العلمية ، ونشأتها المنهجية ، وما حولها من الفلسفة الوضعية وإنما نجد كذلك عبر نظرياته أسس أهم المقومات الرئيسية والمعطيات الاجتماعية الخلاقة ، للفترة المعاصرة منذ النصف الأخير من القرن الماضى ... سان سيمون هو واضع الصناعة كذهب للتقدم ، والتقنية كوسيلة أساسية له . هو الأب الملهم للاشتراكية الإنسانية إن لم يكن أيضاً الأب الفعلى للاشتراكية العلمية (بما فى ذلك الماركسية) كمصدر رئيسى لها ، عبر الجناح اليسارى من مدرسته ، كما أنه هو "منبع" العصر الذهبى للنظام الرأسمالى والليبرالية الاقتصادية العملية فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين . وذلك بفضل الجناح اليمينى لمدرسته ، الجناح الذى أشرف على تحقيق كل المشروعات الاقتصادية الكبرى أو شارك فيها بصفة أساسية ، فى هذه الفترة سواء

فى ذلك شبكة المواصلات الحديدية لكل دول أوروبا ، وشبكة المواصلات البحرية ، مشروعات القنوات العالمية (قناة السويس وقناة بنما) وشركات المناجم الكبرى ، وتأسيس البنوك العالمية فى أوروبا .. الخ ، سان سيمون والمدرسة التى تحمل اسمه منجم فكرى ، ما زالت امتداداته نعيشها حتى يومنا هذا ، كما أكد ذلك العلامة "قرانسوا بيرو" رائد الاقتصاد الفرنسى وعضو المجتمع الفرنسى حيث يرى أنه فى "عصر الصواريخ والأقمار الصناعية" وفى "عصر التقنية" نعيش فى الواقع العصر السانسيمونى ، الحديث قد يطول بنا عن سان سيمون ومدرسته ، لو توخينا التوسع فى هذه الناحية غير أن الذى يعيننا هنا هو مجرد الإشارة فقط لأهمية هذا المفكر الفرنسى العبقري الكبير ، ودوره الأساسى فى النهضة العالمية المعاصرة ، وبالتالى نعرف قيمة حكمه على العرب "حملة مشعل الحضارة الإسلامية" ، ونقدره حق قدره ، ونتفهم مدى أهمية هذا الحكم على ضوء مكانة قائله فهو ليس بصعلوك ، أو مرتزق يرائى العرب المسلمين ، وليس بالنكرة المجهولة التى لا تستحق التعريف برأيها وحكمها ، وكذلك الشأن بالنسبة لـ "كونت" الذى حاولنا أن نعطى فكرة عنه ، وعن أهميته العلمية كمفكر قبل عرض حكمه على حضارتنا وماضيها المجيد ...

كان سان سيمون مصدراً من مصادر تعريف كونت بأهمية دور العرب كحملة لمشعل الحضارة الإسلامية وما ساهموا به فى تطور العلوم ، وتغذية أوروبا بها فى عصورها الوسطى . لم يكتشف سان سيمون أهمية هذا الدور صدفة أو قال به من باب التخمين ، بل بعد دراسة وإن كانت محدودة من حيث الكم فهى عميقة من حيث الكيف والأصالة . إذ من المسلم به أن سان سيمون لا يلقى القول جزافاً ، وإنما يبلور حكمه ، بعد تمحيص وتدقيق بالنسبة للقضايا العلمية ، لقد درس سان سيمون الإسلام ، وتعرف على أسسه ، كما تعرف على تاريخ المسلمين والعرب

الحضارى وتتلّمذ على المستشرق الألمانى "أولنسر" الذى كان عارفاً بتاريخ العرب ومبادئ الإسلام . يعتمد عليه بالنسبة لعصره آنذاك . لقد أنار "أولنسر" الطريق لسان سيمون فاكتشف دور العرب كحملة لحضارة أصيلة وأعلن دون تردد "أن العرب قد قاموا بدور خلاق فى تغذية أوروبا حضارياً فى العصور الوسطى بل كانوا مصدراً من مصادر نهضتها ، "هم بمثابة الجسر المتين ، بهذه موكب الحضارة العالمى بفضلهم إلى أوروبا ، "هم نقلة العلوم والساہرون على بقائها واستمرارها آنذاك ... " وحينما نقارن ما جاء على لسان سان سيمون مدعماً بالحجج وبعد دراسة عميقة ، بما يقوله "دعاة اللغو ، واللغظ من محاملوا على العرب والإسلام باسم استشرق زائف - ففارق كبير بين استشرق علمى أصيل ، وبين ارتزاق بالاستشرق - وبحثوا بكل جهودهم عن عورات ابتدعوها ، فجد أن روح مؤسس السوسيولوجيا سان سيمون ومن بعده خليفته "كونت" جاءت مصداقاً للواقع العلمى وأصوب فى الحكم التقريبى المجرد من الأهواء ، وأكثر وفاءً له ، وللنهضة الفكرية الفرنسية الإنسانية الخالدة ... تبنى كونت بين ما تبنى من آراء معلمه ، أستاذه سان سيمون هذا الرأى الصائب السليم فى العرب والإسلام ، وهذا التخريج العلمى المطابق للواقع ، وللدور الحقيقى الذى قام به العرب فى تطور العلوم ونشأة الحضارة الأوروبية ، كما تبنى هذا الرأى أيضاً غيره من أتباع سان سيمون ، خصوصاً رائد المدرسة السانسيمونية بعد سان سيمون ، ونعنى به "انفانتان" حاول كونت أن يوسع مداركه بالتوسع فى مصادره عن الإسلام ودور العرب الحضارى ، فكانت مراسلاته مع "رشيد باشا الوزير الأعظم السابق للباب العالى العثمانى" حول الإسلام ، وكانت علاقاته المتينة بشاب عربى مسلم من مصر جاء للدراسة فى باريس هو مظهر أفندى (محمد مظهر) الذى رحل إلى فرنسا ضمن البعثات العلمية المصرية وتتلّمذ مع طالبين آخرين على أوجيست كونت وتتبع محاضراته

بانتظام فى باريس عن الرياضيات ، وغيرها خلال أربعة أعوام . من مراسلات كونت يظهر لنا جلياً مدى الاعتزاز بتلميذه محمد مظهر ومدى حبه له ، ويكفى كمثال يساق ، رسالته المشهورة إلى صديقه الحميم العلامة الإنجليزي "جون ستيوارت مل" بشأن "مظهر" حيث أوصاه به خيراً ، وأن يرعاه ، خلال إقامته بانجلترا ربيع سنة ١٨٤٣ ، ولأن كانت هذه العلاقة تعتبر من المظاهر الأولى لبداية الاحتكاك بين المفكرين العرب فى المشرق بالفكر الأوروبى المادى فى العصر الحديث بما فى ذلك "الفلسفة الوضعية" ، والمذاهب الطبيعية... ولأن كانت أصداء هذا الاحتكاك ما زالت المعرفة بأبعادها التمهيدية الأولى نسبية ، خصوصاً فى الفترة السابقة للمفكر المادى العربى دكتور شبلى شميل ، إذا ما استثنينا حركة الترجمة مع رفاعة الطهطاوى وما حوله وتاريخ البعثات التعليمية المصرية فى فرنسا وأصداء هذه البعثات ، كذلك بعض علاقات كبار المفكرين المسلمين كجمال الأفغانى مع كبار المفكرين الأوربيين . فالذى يعنينا معرفته ونحن بصدد هذا البحث الآن هو الجانب الآخر من هذا الاحتكاك وعلى سبيل التحديد أثره فى توسيع مدارك كونت عن الإسلام ، وعن دور العرب الحضارى فى عالم العصور الوسطى المظلمة ... لقد نوع كونت مصادره عن الإسلام كما رأينا ، لم يكتف بما أخذه عن سان سيمون ولا بعلاقاته بمحمد مظهر ، بل راسل رشيد باشا ونقب فى مصادر عديدة. تلاحظ حين القراءة لانتاجه ، وتؤكد لنا سعة إطلاعه وأصالة منهجه ، ودقته فى البحث والتحليل ، ورصانة حكمه الذى جاء مفخرة لكل عربى خصوصاً قوله : "فى الوقت الذى كان الغرب يولى اهتمامه لشرح التعاليم الكنسية ، كان العرب يقومون بدورهم الخلاق ، ولولاهم لما نقلت إلينا الحضارة ولما كان الاحتفاظ بالتراث الإنسانى ، ونقل مرحلته الإغريقية ، فلولا تدخلهم لما عرف الغرب هذه المعرفة للحضارة الإغريقية" ... ثم يزيد فى تأكيد ما قال مكرراً أن العرب هم

حقاً أفادوا الحضارة الغربية باحتكاكها بهم ، قارن كونت بين زعماء أوروبا والزعماء العرب المسلمين في العصور الوسطى واعترف بتقديم المفهوم الحضارى لدى العرب . فهم يتجهون بحضارتهم إلى إطار عالمي ... كذلك حاول كونت أن يجمع عناصر الالتقاء بين "الكاثوليكية" و"الإسلام" وأن الإسلام دعا إلى هذا الالتقاء السامى وإلى هذه الوحدة التاريخية النبيلة عبر عالمية الدين باعتبار هدفه الأسمى ، وبالتالي التقليل ما أمكن من أهمية النظم الدينية والشكليات والاهتمام بالجوهر ، جوهر الدين نفسه وما يدعو إليه ، توسع كونت فى شرحه للدين الإسلامى ، وبدأ فى تكيف تعاليمه بشكل وضعى (نعنى بوضعى "علمي" كما جاء على لسان كونت نفسه فى تحديده لتعبير "وضعى") خصوصاً عبر انطباعاته فى "رسائله النادرة الموجهة لرشيد باشا الوزير الأعظم السابق للباب العالي" وقد أرفقها كونت ببعض مؤلفاته الهامة المهداة لرشيد باشا .

تعرض كونت للتعاليم الإسلامية لا تعرض المتحمس ، أو المتحامل وإنما تعرض الدارس الباحث عن الحقيقة على ضوء الواقع التاريخى ، المجرد من كل نسبية ما أمكن ، واعتمد فى تخريجه لما درس على "فلسفة التاريخ" حيث إن "فلسفة التاريخ" توضح وضعية الإسلام فى العصور الوسطى بشكل سليم ، ويتجه كونت فى تخريجه إلى القول بمرحلة الانسانية فى التقدم عبر الأديان السماوية "فتعاليم المسيح (عليه السلام) تفوق تعاليم موسى" كما أن الحقبة الشرقية جاءت بتقدم حضارى أكمل يتمثل فى التعاليم الإسلامية وأصالتها وتمشيها مع الطبيعة البشرية وصيانة التراث الإنسانى حين المقارنة بالأوضاع والنظم الدينية المعاصرة ، إذ يلاحظ أن النظم الدينية الأخرى كان لها طابع انتقائى يتكيف أولاً وقبل كل شئ بالتعاليم اللاهوتية ، بينما تكيف التعاليم

الإسلامية مع واقع الطبيعة الشرقية. كان إيجابياً للغاية . لقد سهل الإسلام بتعاليمه الروحية هضم فكرة الوجدانية بعد أن ركز مفهومها ، وقال بسيطرتها وحدد أبعادها عقلياً ، وكان ذلك فى صورة بديعة خلاقة ، من الصعب قهرها ، لأنها أكثر كمالاً ومنطقية ، وبالتالي اختصر الطريق فى الاتجاه إلى المرحلة الوضعية (أى العلمية) ... لقد كان فى شرح مفهوم الاجتماعى فى التعاليم الإسلامية على غيره وكان هذا من العوامل الأساسية التى أهلت لصلاحيته كدين اجتماعى عالمى ، يلتقى مع الوضعية لتحقيق دين الإنسانية ، لقد واجهت الإسلام قضايا اجتماعية هامة كغيره من الأديان ، فواجهها مواجهة واقعية محاولاً الحد من سلبيتها ، وناقشها فى أسلوب صريح دون تردد (مثل قضية تعدد الزوجات وقضية الرق) لم يقل بالنصح المجرد ، بقدر ما حاول البحث عن حلول واقعية وسريعة تتناسب مع الطبيعة المعقدة لهذه الظواهرات فى مجتمعات العصور الوسطى ولم يغب عن كونه أن يشير إلى دور المفكر والفيلسوف الشرقى بخصوص التعرف على قضايا المجتمع وظواهراته المختلفة فيوضح عن طريق المقارنة ... " أن الشرق فى استطاعته تحاشي المرور بالمرحلة التى مر بها الغرب حينما اتجه هذا الأخير بطاقاته الفكرية والفلسفية لتفهم الطبقات الدنيا وتدعيمها أمام عبزه عن فهم ما يدور بخلد الطبقات العليا من نوايا وأهداف " ... وبالتالي يمكن للشرق الإسلامى أن يحقق المرحلة الوضعية النهائية (يعنى العلمية) بسرعة فائقة حينما يتجه مباشرة إلى الهدف مختصراً الطريق بالقفز من الحالة الأولى (اللاهوتية) إلى الحالة الثالثة (الوضعية) مستفيداً من تجارب الآخرين الذين وصلوا بالمجتمع الإنسانى فعلياً إلى هذه الحالة الثالثة ومتفهمين لنتائج التجارب العلاجية خصوصاً ما نجح منها فيما مضى بصورة علمية ملموسة " ولم يعد من نجاحها فى العصر الحديث إلا انصراف المسلمين ، لا الإسلام إلى أمور ثانوية (التعبير هنا حرفياً لكونت) شغلهم عن

تعميق تجاربهم الناجحة واستبعاد السلبي منها" ، بمعنى : "... تكييف التعاليم والمذاهب مع طبيعة العصر عن طريق الاجتهاد العلمى" فى حقيقة المجتمع ومقتضياته ومعطياته الحالية .

ويستمر كونت فى عرضه ، وتحليله للتعاليم الإسلامية ... "لقد سد الإسلام فراغاً كبيراً فى الميدان الاجتماعى بالنسبة لتطور الإنسانية ، وقدم الكثير لهذا التطور ... وفاق ما قدمته بيزنطة" ولقد ركزت "العبقريّة الإسلامية" (التعبير لكونت) فيما مضى نشاطها فى "تنظيم المجتمع وحكمه ووجهته نحو العلوم والفنون وقدمت لنا نماذج رائعة من هذه العبقريّة ... إن مدارس إشبيلية وقرطبة ، لأكبر دليل يساق خصوصاً حينما يقارن ذلك بما كان يشغل الغرب حينئذ من قضايا لاهوتية كهنوتية .." ليس لها طبيعة التطلع العلمى ، هكذا اتجه كونت إلى تقديم الحوار المباشر والالتقاء بين الخالق والمخلوق ، دون وسيط عبر الإسلام ، تأكيداً عقلياً لأصالة تعاليمه وطابعها الوضعى . ولم تقل "براعة التعاليم الإسلامية ، فى ميدان التشريع وتحديد مفهوم السلطة ، ومحاولة تكييفها بما يتناسب وطبيعة التطور ، ويتمشى وأسس السياسة الوضعية ، عن غيره من الميادين وبخصوص هذا الموضوع يوضح كونت أولاً .. أن الكل يشعر أن الخلط بين السلطات الروحية والدينية كان فيما مضى ضرورياً للغزو والفتح" .. وعلى ضوء دراسته لموضوع السلطات خصوصاً عند الرومان وموضوع فصل السلطات فى الغرب وما أحاط به من تحليل وبحث ، يرى كونت بعد ذلك ... أن السلطة الروحية وحدها أهلاً ، كى تضم تحت رايتهما بفضل تعاليمهما المشتركة أجناساً وعناصر مختلفة من البشر ، ومن ثم تتجه لتحمل السلطة الدنيوية فيما بعد بجدارة ... أما بالنسبة للإسلام فيقرر كونت ... أن الإسلام جاء ليؤكد السلطة للحاكم ويحقق للمجتمع الاستقرار عن طريق طاعته ... ومن الملاحظ أن كونت كمعلمه وأستاذه سان سيمون يميل إلى الحكم المستقر الذى يضمن

للمجتمع إمكانية التفتح على قضايا الحقيقة ، لا شكلية الحكم وضباع
عمر المجتمع فى البحث عن لمن تكون السلطة ؟ ويستنفد فى ذلك طاقاته
الأساسية مادياً وفكرياً ، ويراد بالقضايا الحقيقية ، قضايا تطوره وتعمقه
فى المفاهيم الحضارية ، والتي حددها سان سيمون بالمعارف التقنية ،
والتبحر فى العلوم والتكيف مع النمو الصناعى . حتى السلطة فى حد
ذاتها تتجه ، مع تقدم المعارف التقنية ، والنمو الصناعى ، أكثر فأكثر
إلى "إدارة الأشياء والتحكم فيها بدلا من التحكم فى الأشخاص وإدارتهم
أى حكم الأشياء والسيطرة عليها ، لا حكم الأفراد والسيطرة عليهم"
وبالتالى لا تعد السلطة من حيث هى هدف وإنما مجرد وسيلة غايتها
الأسمى إسعاد المجتمع بتحقيق الرفاهية له ، عن طريق التقدم التقنى
والصناعى ... ولقد بهر كونت بالجانب الاجتماعى فى التعاليم
الإسلامية ، هذه التعاليم التى لم تحدد من فاعليتها الاتجاهات الكهنوتية
التى عرفتتها المجتمعات الأخرى فى العصور الوسطى ، حيث إن الشكلية
المسيطرة على التعاليم اللاهوتية فى الغرب ، على حد تعبير كونت -
حدثت من فاعلية المثل المسيحية الأصيلة السامية بينما الإسلام تفتح
عملياً على الأوضاع الاجتماعية وأعطى لها أهمية بالغة بل أعطى لها
الصدارة . لقد تفوق المفهوم حكم تقريرى صحيح عن الإسلام ، بما فى ذلك
رسوله محمد (صلى الله عليه وسلم) حكم لا ينساق فى موكب المتحمسين
المؤيدين دون تحليل ، أو المفندين الناقدين دون حجة أو تحليل .

يحدد كونت حكمه "مؤكدًا" : "مشاركته فى الحملة المفتعلة ضد
الإسلام فى الغرب" ويقول : "إن لم أعالج الروحانية الإسلامية فى
الشرق كما يجب ، وفى كل أبعادها وأعماقها ولذا لا أشارك فى الحملة
ضدها دون معرفة عميقة ..." هذه الحملة التى "وجدت من يستمع إليها
حتى المفكر العملاق الكبير ديدرو ، "إن الحكم على الإسلام فى الغرب لا

يدخل في أغلب الأحيان من التعتب. "لقد حاولت كونيت على ضوء ما
 لديه من معلومات ، أن يقدم حكماً على تطور المجتمع الإسلامي ، فبينما
 يتحسس لمرحلته الأولى يتحفظ كثيراً على "التخريج الفارسي للإسلام"
 والاتجاه به نحو المفاهيم الفارسية الخاصة ، ونفس التحفظ والنقد نجده
 بالنسبة "للمرحلة العثمانية" (صداقته لرشيد باشا لم تحل دون نقده
 للعثمانيين) ، فـ"كونت" يرى "أن العثمانيين (الأتراك) رأوا في الإسلام
 أولاً وقبل كل شيء دين سيادة مع أن طبيعة روح الإسلام الأصيلة
 التسامح والمساواة (التعبيرات حرفياً لكونت) فالإسلام لا يسمح فقط
 بالتفريق بين الأجناس البشرية ، بل لا يسمح أيضاً بالتمييز بين السيد
 والمسود ، ولعل هذا ما ساعد على قيام إمبراطوريات إسلامية مزجت بين
 أجناس مختلفة من البشرية ، فكانت خير طلائع للدين العالمي ، في شكل
 واقعي ملموس وليس مجرد دعوة إليه ... "ويميل كونت إلى القول بأن
 روح الإسلام لم تفهم في البداية ، بل كان الحذر منها ، وبالتالي لم يحدث
 تفاعل إيجابي بين الأديان ، وحل بدلا من ذلك منذ البداية التطاحن ،
 فكان على مر القرون ... ورأى كونت أنه كان من الخير للمسيحية أن
 تترك الشرق للإسلام" وتتكامل الأديان كل في نطاق وجوده وذلك في
 سبيل "المصلحة المشتركة" وهي إسعاد الإنسانية وسعوها فالشرق والغرب
 يبحثان عن الدين العالمي رغم عدم وحدة التاريخ بينهما ولكن يمكن لهذه
 الوحدة أن تتحقق عن طريق الفلسفة الوضعية . والإسلام من جانبه بوعيه
 الرفيع للقضايا الروحية ، في طبيعة المتجاوبين مع الفلسفة الوضعية
 والملتقى معها في النهاية عبر الدين العالمي . هذا الدين العالمي الذي
 يفضل "الروحانية المخرجة على المادية التحليلية الغير ملتزمة بنظام
 تصور رصين . "ويؤكد كونت أن الإسلام دين قيادة وتطلع وليس بدين
 سيادة ساعدته فتوحاته وأفادته بقدر ما ساعدت وأفادت الآخرين في
 النهوض عن طريق الاحتكاك به وبتعاليمه ... إن تطلع الإسلام نحو

العالمية يجعل من أرضه خير أرض للأفكار الوضعية ، والتجاوب معها ، بالتالى دون حاجة إلى المرور بمرحلة وسيطة وفترة انتقالية .

إن الإمبراطورية العالمية السامية التى دعا إلى إقامة دعائها دين محمد صلى الله عليه وسلم بناء على الالتقاء والتكامل خير ما يحيى تحقيقها هو الاتجاه الوضعى هكذا يكرر كونت الذى يرى فى محمد صلى الله عليه وسلم رائداً عريقاً من أسمى رواد الروحانية ومتعرفاً على الشئون الدنيوية أيضاً ، استطاع أن يكمل فى زمن بسيط ما لا يستطيع غيره إتمامه فى قرون طوال خصوصاً اتجاهه نحو العالمية فى العصور الوسطى عبر حلول معقولة ومقبولة ، ويتعمق عملاق السوسبولوجيا والفلسفة الوضعية فى حكمه على محمد صلى الله عليه وسلم "وعبقرية الإسلام" فيؤكد كونت المكانة السامية للفكر والعقل فى المبادئ الإسلامية والتفهم السليم للمقدرة الإنسانية من خلال هذه المبادئ خصوصاً من الوجهة الاجتماعية وحين المقارنة بين الأديان المعاصرة للإسلام آنذاك فى العصور الوسطى ، حيث التعاليم اللاهوتية لها السيطرة وعلى العقل أن يستسلم أمامها فى أغلب الأحيان ، هذا العقل الذى ندر أن أخرج فى الإسلام بمعنوياته ومثله الرفيعة ... لقد اكتشف كونت فى مواقف كثيرة لمحمد صلى الله عليه وسلم أروع صور الالتزام الوضعى والأصالة فى التخرج . لقد قدم محمد صلى الله عليه وسلم خير ما ترجوه الإنسانية من تعاليم سمحة ، أعطت الفرصة للبشرية كي تنقذ مصيرها على أحسن وجه ولا تضيع عمرها فى تجارب مؤلمة ، وعناد غير مجد ، هنا يشير كونت إلى رأى هام خاص بتعننت فئات اليهود التى رفضت دعوة الإسلام كشأنها فى رفض الدعوة المسيحية فيقول : "إن اليهود الرافضين بعد أن فقدوا الأمل الوحيد لهم كفئة مشردة جاء محمد العظيم (النعى بـ"عظيم" جاء على لسان كونت) ليتيح لهم الفرصة الطيبة للدخول فى حظيرة الدين على أن يسلموا به "رسولا منتظراً" كما جاء فى كتبهم السماوية .

وبحاول كونت أن يظهر طبيعة التكامل الدينى والسير به نحو الهدف
الأسمى للإنسانية ، فى ظلال الوضعية (ويعادلها كما قلنا بالعلمية)
فيبرز كمثال مفهوم الدين العالمى عند "سان بول" فى المسيحية ، ومفهوم
العالمية فى الدين الإسلامى والتقاء الأديان فى هذا الطريق الصائب لإنقاذ
البشرية ، ويكرر كونت خلاصة حكمه ، وموقفه من الإسلام كدين عالمى
يلتقى مع الفلسفة الوضعية ، فى الأهداف والأسس ، محدداً عبقرية
الإسلام ، من خلال هذه العبارات الأصيلة : "إن العبقرية الإسلامية قلما
تتعارض مع الحدث النهائى ، للدين الوضعى العالمى ، حيث إنها تهدف
دائماً إلى معرفة الحقيقة عبر اتجاهاتها العملية الملموسة وبواسطة
معتقداتها المبسطة " .

هذا هو حكم أوجيست كونت ، وهكذا كان موقفه من الإسلام
باختصار. كثيراً ما تركنا كونت يعبر هو عن موقفه بنفسه ، وبأسلوبه ،
وذلك عن طريق التوسع فى استعمال نصوصه ، والاستشهاد بها ، ومن
ثم نكون قد أعطينا للموضوعية حقها ، حين علاج هذه النواحي الدقيقة
الخاصة بتقنين الأديان ، والحكم عليها ... لم نفصل موقف كونت من
إنتاجه الفكرى بصفة عامة ، وبالتالي قدمنا "فكرة سريعة" عن كونت
المفكر المنتج ، هذه الفكرة التى جرتنا بدورها إلى إعطاء نبذة تمهيدية
عن كونت الإنسان الذى عاش ... بقى علينا أن نحدد ، إن جاز
التحديد ، هل كان كونت صائباً فى حكمه ، وهل كان أصيلاً فى موقفه
من الإسلام ؟

إذا ما نظرنا إلى مصادر كونت المحدودة التى اعتمد عليها ليضع
حيثيات حكمه ، وإذا ما قارنا حكمه بحكم معاصريه وسابقيه من
المفكرين الأوروبيين ، الذين يفخرون بتكوينهم الوضعى ، وتقريرهم
المنهجى ، فى القضايا العلمية ، نجد حكمه هذا ، قد جاء مصداقاً

لأصالته وتأكيده جديداً على عمقه ، وجدارته كعلاق من عمالقة
السوسيولوجيا والفلسفة الوضعية ، يفوق كثيراً معاصريه في الالتزام
بالموضوعية وعدم المشاركة في التيارات المفروضة ضد الإسلام ، هذه
التيارات التي حملت في غمارها كثيراً من المفكرين ، ممن كان المفروض
فيهم أن يكونوا رسلاً للحقيقة العلمية المجردة عن الأهواء ، ومدافعين عن
الأفكار الإنسانية والروحية السامية مهما كان أصل هذه الأفكار ومهما
كانت جنسيتها ...

لا شك أن موقف كونت من الإسلام جاء بالكثير من التوضيحات
(على سبيل المثال تمييزه بين الإسلام كمبادئ ، وبين المسلمين كمجتمع
بشرى ، كذلك محاولته وجود نوع من الالتقاء بين فلسفته الوضعية وبين
الإسلام على أنه أقرب النماذج الدينية إليها ، وإلى تحقيق العالمية ودين
الإنسانية جمعاء ...) لم يتعرض كونت لجوهر الإسلام من زاوية
القدسية والتنزيل ، وإنما اكتفى بالتعرض لمظاهره ومعطياته على ضوء
مبادئه الأساسية ومقارنته بالأديان الأخرى المعاصرة له ، ومدى الالتقاء
بالفلسفة الوضعية حسب تطور أحوال الذكاء الإنساني . لم يخض كونت
في قدسيات الإسلام وبواطن الإيمان وإدراك السمعيات والفيبيات
مما يستوجب إحاطة عميقة كاملة بالتوحيد والفقه وما حول ذلك من
الإسلاميات ، وإنما اكتفى بما يعنيه وكان في ذلك دقيقاً ، ومنهجياً بل
"وضعياً" حقاً بمعنى علمياً (إذا ما استعملنا تعبيراته والتزمنا بمعانيها)
فالتعرض لكل أبعاد الإسلام يستلزم معرفة عريضة بتطور المذاهب
الإسلامية ، وما عرفته من إشعاع فكري على يد الفلاسفة المسلمين إلى
جانب الإحاطة الشاملة بالتاريخ الاجتماعي للإسلام ، وأولا وقبل كل شيء
التعرف على كنز الإسلام الروحي (نعني : القرآن والسنة) وهذا ما كان
ينقص كونت ولم يستطع رغم تطلعه استيفاءه في كل أبعاده وإلا لكان من
خيرة من درسوا الإسلام وقدروه بالتالي حق قدره .

وعلى الجملة فموقف كونت يمكن أن يؤخذ رغم أبعاده المحدودة ،
المحددة من حيث الكم وإن كانت عميقة من حيث الكيف والأصالة كنموذج
سليم صائب ، على الذين يلقون بأحكامهم جزافاً ، بل وفى شئ من
التسرع من مدعى الالتزام بالتخريج المادى ، أن يقتدوا به فهو نموذج لم
يقدمه مفكر دينى متحجر ، بل قدمه رائد الفلسفة الوضعية كونت ، ومن
ثم على الملتمزين أن يستوعبوا قبل أن يحكموا ويهضموا قبل أن يخرجوا
ويتجردوا حين الحكم من نعرتهم الذاتية ، وعصريتهم الفكرية العنيدة ،
وبالتالى يسود "حكم الحقيقة" وتسيطر "روح التفهم العلمى المنهجى
الأصيل" - وما أحوجنا إليه وإليها - دون تحمس أعمى ، أو نقد سطحي
مفتعل .

وهكذا رأينا رائد الوضعية "أوجيست كونت" هذا العملاق الذى اتجه
بوضعيته ليسمى بها متخذاً من الإسلام معياراً لما ارتآه كصلاحية للدين
الذى يتمشى مع الحالة الوضعية وهى الحالة العلمية والأخيرة من أحواله
الثلاثة فى النظرية العامة للتقدم ، لقد أغنى بمشاعره الفياضة باحثاً عن
مخرج ومآل دون أن يتنكر لقدرات العقل أو ابداع الفكر وإننا بدورنا
لنفخر بهذا العملاق الذى انتهى نهاية القادر والعارف بالإسلام مثلاً
أصيلة وشعائر مبسطة لما فيه إسعاد للإنسان والمجتمع على حد سواء دون
إلغاء أو تنكر بين العلم والدين فكلاهما لازم لسمو الإنسان وتقدمه .

* * *

الفصل الخامس

كارل ماركس ونهاية عملاق

من أين نبدأ مع "كارل ماركس" ؟ وكيف ننتهي به ولا نقول ننهيه ،
"كارل ماركس" ناقد الرأسمالية أم "كارل ماركس" فيلسوف الاستلاب أو
"كارل ماركس" المناضل في الساحات النقابية وحتى التنظيمات السرية ،
كارل ماركس الصحفي أو الجامعي المنظر والباحث ، إنه ولا شك متعدد
الجوانب بقدر ما له من المريدين بقدر ما يحسب له من الأعداء والخصوم ،
شغل ومذهبه حيزاً وما زال يشغل محثلاً في تيارات فكرية ومؤسسات
نظمية يكفي كمثال الاتحاد السوفياتي والصين وما حولهما رغم ما
بينهما من تباين في التمدد له أو تفسيره وتأويله إن كنا نترك كارل
ماركس في تفاصيله وتفصيلاته للبحث المتخصص والمتعمق ونكتفي هنا
في إطار نهاية العملاقة بعرض موجز يصور لنا حياة الرجل إنساناً وفكراً
وإنتاجاً لنصل به إلى نهايته كعملاق وكيف كانت ؟ : "كارل ماركس"
(٥ مايو ١٨١٨ - ١٨٨٣) هو الطفل الثاني لإخوة ثمانية ولد في
"ترافس" بألمانيا وقبر في لندن ، كان والده محامياً من أصل يهودي وجده
كان رباناً رجل معبد وفحول والده إلى البروتستانتية سنة ١٨١٦ ، أي
قبل مولده بعامين كي يهرب من معاداة اليهود في بروسيا بعد سقوط
"نابليون" ، والذي يعنينا الابن كارل ماركس الذي نشأه في عام ١٨٣٠
تلميذاً في إحدى ليسيهات "ترافس" بل يلاحظ أنه اختار كبحث لآداء
الباكلوريا سنة ١٨٣٥ بعنوان : "تأملات فتي مراهق أمام اختيار
مهنته" وفيها نجد قوله : علاقتنا مع المجتمع تبدأ قبل أن نبدأها ، وبرز
في هذه التأملات اتجاهاته إلى الاجتماعية : التحق بجامعة بون لدراسة
الحقوق وكان أيضاً يدرس الفن بل ويكتب الشعر ، ومع الأحداث
الأساسية لهذا الإنسان الذي هو "كارل ماركس" نقف مع عام ١٨٣٦

حيث خطب صديقة طفولته "جاني فون وست فالين". وهي من عائلة أرستقراطية بروسية قحة ووالدها كان مستشاراً في مجلس الوصاية بل وأخاً لها هو "فيردناند" أصبح وزيراً للداخلية في سنوات ١٨٥٠ وإن كنا أشرنا إلى هذه المعلومات الحميمة فالذي يدفعنا إلى ذلك تبيان الإطار الأسرى الأرستقراطي لهذا المناضل الشعبي المتكلم باسم الكادحين . وفي نفس العام ١٨٣٦ نشاهد كارل ماركس في برلين ليكمل دراسته القانونية كما يتابع دراسة التاريخ والفلسفة وبصفة خاصة الهيجيلية التي كانت متصدرة في جامعة برلين آنذاك وتتلعد في البداية على الهيجلي البروفسور "إدوارد جانز" كما صادق الإخوة "بويسر" و "برونو" و "إيدكار" وهما فلاسفة من اليسار الهيجلي ومن خلالهما جذب إلى الفلسفة وركز عليها وتستوقفنا رسالة خطها الشاب كارل ماركس إلى والده في ١٠ نوفمبر ١٨٣٧ وفيها يعرض على والده رؤية لحياته المليئة بالاضطرابات بل وأيضاً يعرفه بقراءاته ورغبته في أن ينتهي مع الفلسفة الهيجيلية وبعد عام توفي والده . وفي ١٨٣٩ بدأ في تحضير أطروحته للدكتوراة واختار كموضوع عن الفلسفة "الأبيقورية" وكان يسعى للحصول على مقعد في جامعة برلين كأستاذ كما أنه في هذه الفترة اهتم بفلسفة "سبينوزا" و "لايبينيز" و "هيوم" و "كانط" ثم اتجه إلى جامعة "فينا" ليناقد أطروحته في إبريل ١٨٤١ واختار لها كعنوان : الفرق بين "ديموقريط" و "أبيقور" ، وغلبت عليه في هذه الفترة النزعة المثالية ولكن كانت بداية الطريق بل والخطوات الأولى للبحث عن أرضية لفكر مادي ونقد للأديان بل كان الإلحاد موضع مناقشاته مع من تعامل معه من الفلاسفة آنذاك إلى جانب "بويسر" السابق الذكر أمثال "موزيس هس" ، وكان الجميع تحت تأثير أبحاث "فيورباخ" ، وأيضاً يلاحظ في هذه الفترة وفي منطقة "ريناني" كانت المضاربات بين مختلف الفئات الاجتماعية ، تحالفات وتنكر للتحالفات ، برجوازيين ويساريين هيجيليين ومحاولات

لإصدار الصحف ، وخطا كارل ماركس الصحفى خطواته الأولى فى هذا الإطار بكتابات فى جريدة معارضة وهى "الكازيت دى رينان" الذى أصبح رئيساً لتحريرها فيما بعد ، وكانت مقالاته تعنون بحرية الصحافة بؤس العمال ويلاحظ فى هذه المقالات تطلعات ماركس المبدئية للبحث الاقتصادى ، وبدأ ماركس يعبر الجسر الممتد إلى باريس ، جسر الاشتراكيين المثاليين خصوصاً "سان سيمون" و "فورييه" و "برودون" وإن كنا نرى فى تعبير مثالى لـ "سان سيمون" نوعاً من التجاوز فى هذا النعت لأن "سان سيمون" إن كان يعتبر مفكراً فى عصر الاشتراكية المثالية فهو أولى المثاليين واقعية هكذا وصفنا "سان سيمون" حينما قارناه بـ "كارل ماركس" فى مؤلفاتنا ، وبهذا المضمون إن كان سان سيمون أكثر المثاليين واقعية فكارل ماركس أكثر الواقعيين مثالية باعتبار أن "سان سيمون" عاش فى فترة الفكر الاشتراكى المثالى وكان واقعى النزعة بينما "كارل ماركس" تلاه فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر فى فترة واقعية الاشتراكية التى وصلت إلى حد الزعم بعلميتها فكان أكثر الواقعيين مثالية ، ونكتفى بهذا القدر فيما يخص سان سيمون لنعود إلى كارل ماركس وكيف تعامل مع التيارات السائدة مادية وديموقراطية ثورية إلى شيوعية ، واستمر فى نشر مقالاته فى "الكازيت" السابقة ناقداً للدولة البروسية وفى هذه الفترة كان أيضاً التكامل بين "كارل ماركس" و "إنجلز" عبر الصداقة الأبدية التى جمعتهما وكان إنجلز يكتب عن السياسة الاقتصادية فى إنجلترا .

وجاء عام ١٨٤٣ ليكون عام العرس لـ "كارل ماركس" لزواجه وبعد خطوبة طويلة مع "جينى وست فالن" الأرستقراطية فى الوقت الذى كانت المقالات التى يكتبها كارل ماركس تصدر ومعها تصدر صحفها وتلقى جريدة لتؤسس جريدة أخرى ، مرة فى ألمانيا وأخرى فى فرنسا ،

ولعل ما يستحق الإشارة في هذا الحضم ما نشر في الحوليات الفرنسية الألمانية والتي نشرت عدداً واحداً سنة ١٨٤٤ وكان يحمل عنوان "المسألة اليهودية" حيث عرض كارل ماركس أفكاره عن الصراع السياسى وركز في تحفظاته على الدولة وعلى رأس المال كحواجز تحد من ارتقاء الإنسانية وكانت رحلته إلى باريس سنة ١٨٤٣ وعلاقته بالشاعر "أونريك هاينى" الشهير رفيقه في رحلته ، وكانت له علاقات بالأوساط الثقافية والأدبية في باريس ، والتحم كارل ماركس في حياته الباريسية بالسانسيمونيين (أتباع سان سيمون) وبخاصة التيار اليسارى من "بيكر" حتى "كاى" مروراً بالعديد من أتباع "سان سيمون" ومن المتعاطفين مع الجمعيات السرية في باريس حيث مارس "كارل ماركس" نشاط الصالونات المغلقة وسراييب الجماعات السرية من العدلاء والمشردين خصوصاً من كان منهم من المهاجرين الألمان في باريس ، وهذه صفحة إن كان البعض من المتخصصين اهتم بها إلا أن جوانب أخرى ما زالت في حاجة إلى المراجعة والكشف .

وفي هذه الفترة تبلورت أفكار "كارل ماركس" حول نقده لفلسفة القانون عند "هيجل" وهو ما يعرف بمخطوط ١٨٤٣ وبرزت حينئذ اتجاهاته بوضوح نحو الطبقة الكادحة ومعارضته الضمنية لـ "هيجل" واتضحت أكثر فأكثر هذه الرؤيا في مخطوطات ١٨٤٤ "الأقتصاد السياسى والفلسفة" حيث تصدى "كارل ماركس" بالشرح والتحليل لـ "آدم سميث" و "جان باتيست سيه" و "ستوارت ميل" و "سيس موندى" ... ونضجت أيضاً رؤية هذا المفكر "كارل ماركس" حول "الالينة" أو الاستلاب في مسيرة تحقيق الإنسان الكامل كذلك ما يعنى رأس المال وعلاقات الإنتاج وقواه ... والقيمة وفائض القيمة وتراكم رأس المال . إعادة لإنتاج رأس المال . الريع العقارى إلى آخره ... ويلاحظ فيما يعنى الإقامة الباريسية لـ "كارل ماركس" أن تعامله مع جماعة العدلاء والجمعيات

الشيوعية السرية وهي جماعات تأسست منذ ١٨٣٦ بين صفوف المهاجرين الألمان وكثيراً ما كانت هذه العلاقات لـ"كارل ماركس" تنتهى بالمشادات والمناقشات الحادة . كمثال مع "ريخ" و "برودون" و "باكونين" ونشير بالمناسبة إلى علاقات أخرى ولكن إيجابية تمت بين "كارل ماركس" والرفيق الذى لم ينفصل عنه بعد ذلك رفيق العمر "انجلز" ونشر كتابه سنة ١٨٤٥ عن الوضعية الكادحة فى إنجلترا . ولقد دعمت العلاقات بينهما بالتعاون البحثى المشترك سواء فيما يعنى الأيديولوجية الألمانية أو ضد "بوير" عن العائلة المقدسة" وتكوين المادية التاريخية... الخ .

وفى فبراير ١٨٤٥ ترك كارل ماركس باريس إلى بروكسل وبقي فيها إلى سنة ١٨٤٨ وكان مهتماً بالدراسات الاقتصادية كما أن انجلز التحق به فى "بروكسل" فى إبريل ١٨٤٥ ومعاً وضعاً أطروحة حول "فيورباخ" . متجهين بها إلى المادية التاريخية فضلاً عن ما أشرنا إليه من قبل كعمل مشترك يحمل عنوان "الأيديولوجية الألمانية" (سبتمبر ١٨٤٥ مايو ١٨٤٦) وتحتوى على مناقشات ضد أطروحات "بوير" و "ستيرنير" أى ضد ما أطلقوا عليه "اشتراكية البرجوازية الصغيرة" وتعتبر أول محاورة فى المادية التاريخية التى عرفت على أنها النظرية العلمية لكل علم اجتماع ممكن ثم اتجها معاً إلى لندن وكانت فترة مراسلات مع الشيوعيين ومع "برودون" ثم كان أول اجتماع للجامعة الشيوعية "جامعة العدلاء" ذهب انجلز وبقي "ماركس" رئيس فرع بروكسل مؤسساً لجمعية العمال الألمان فى هذه المدينة كما انتخب نائباً للجمعية الديمقراطية ومع "انجلز" شارك فى المؤتمر الثانى بلندن للجامعة الشيوعية وهناك طلب منهما تحرير البيان الشيوعى (فبراير ١٨٤٨) . أو بيان الحزب الشيوعى وهناك أيضاً وضع مؤلفه ضد "برودون" بعنوان "بؤس الفلاسفة" سنة ١٨٤٧ ويلاحظ بالنسبة للبيان الشيوعى أنه طرح الأفكار الرئيسية للصراع الطبقي

وأفكار ماركس عن المجتمع الجديد ومن المعروف أن فى هذه الفترة أيضاً (١٨٤٥ أو ما بعدها) تخلّى ماركس عن الجنسية البروسية ، وفيما يعنى حياته الخاصة أنجب كارل ماركس بعد زواجه طفلان فى هذه الفترة أيضاً على التوالى : "لورا" التى أصبحت عاهرة (سبتمبر ١٨٤٥) وادجار (ديسمبر ١٨٤٦) ، ونعود بكارل ماركس إلى الأحداث فبعد قيام ثورة ١٨٤٨ بفرنسا طرد من بلجيكا ودعته الحكومة الفرنسية المؤقتة وكانت تحت تأثير "السانسيمونيين" إلى باريس ولكن سرعان ما رحل إلى ألمانيا (كولونيا) لنشر جريدة الجازيت الرينانية الجديدة وعمل رئيس تحرير لها وكانت أغلب المقالات عن الصراع فى ألمانيا وظهرت الجريدة سنة ١٨٤٨ واختفت بعد عام (مايو ١٨٤٩) بعد أن أوقفت وقت متابعات لكارل ماركس لتهريره من الضرائب ثم طرد من ألمانيا وعاد إلى فرنسا التى طرد منها فى أغسطس ١٨٤٩ فرحل إلى لندن حيث استقر به المقام هناك باستثناء رحلات متقطعة هنا وهناك . وتكونت فى لندن جامعة العمال ومثل "ماركس" العمال الألمان ثم ظهر له الصراع الطبقي فى فرنسا عام ١٨٥٠ . ومن ثم بدأت تتركز اهتماماته حول الاقتصاد أساساً ليلبور أطروحته عن رأس المال كمثل وكانت فترة حياته اللندنية آنذاك حافلة بالمتاعب والمعاناة وقد أنجب ثلاثة أطفال ماتوا صغاراً وعانى من ضيق ذات اليد رغم مساعدات "إنجلز" له وبدأت تتقاسمه الأمراض خصوصاً الجلدية وظهور الدماامل فى كل مكان من جسده ومع هذا استمر فى العمل ولم ينقطع ، فظهر له الثامن عشر "بريمير لويس بوناپرت" فى ١٨٥٢ خصوصاً اهتم بالمراسلات الصحفية لـ "نيويورك تريبيون" حيث كان يحلل لها سياسة بريطانيا كما كان يكتب فى جريدة الشعب فى بريطانيا وجرائد أخرى فضلاً عن مراسلاته مع رئيسه "لاسال" فى ألمانيا وفى عام ١٨٥٥ ولدت له "يليانور" التى تزوجت فيما بعد المناضل الاشتراكى الإنجليزى "إيفلينج" (١٨٤٩ - ١٨٩٨) ولقد أثقل "كارل ماركس"

بالديون مع استمراره فى أبحاثه الاقتصادية وفى سنة ١٨٥٧ كان نقده للاقتصاد السياسى كما استمر فى كتابة المخطوطات التى نشرت فيما بعد (١٨٣٩ - ١٨٤١) كما أنه كانت له مراسلات كثيرة مع الأصدقاء والرفاق فى هذا التاريخ ونشرت هذه المراسلات بدورها فى الثلاثينيات من هذا القرن ، ودعى فى سنة ١٨٦٤ ليرأس الجمعية العامة للعمال الألمان وتوفى "لاسال" الذى كانت له معه صداقات كما كانت له معه مطاحنات وأسس بعد ذلك فى لندن الجمعية الدولية للعمال وانتصر من خلالها بأفكاره على "باكونين" الفوضوى وظهر له الكتاب الأول عن رأس المال عام ١٨٦٧ فى ألمانيا فى الف نسخة كما شوهد كارل ماركس فى سنة ١٨٦٩ عند ابنته "لورا" التى كانت قد تزوجت بالفرنسى "بول لافارغ" منذ عام (١٨٤٢ - ١٩١١) تاريخ انتحارهما معاً بالسسم فى حفلات رأس العام ولقد كان "لافارغ" حتى انحساره من قادة الحزب الاشتراكى الفرنسى مثل "عنى سيد" ولقد تابع "كارل ماركس" فى سنة ١٨٧١ حركة "الكومين" آنذاك ومستمراً فى كتابه رأس المال الذى لم يكمل على أى حال وإن كان قد اهتم بترجمة الكتاب الأول عن رأس المال إلى الفرنسية سنة ١٨٧٥ وقد ساعد رفيقه انجلز فى كتابه "ده رنج" و"انتي ده رنج" ولاحقته الأمراض مكثفة فذهب للاستشفاء فى "كارلسباد" ثم نصح بالذهاب إلى الجزائر فذهب إليها عليها تخفف من أمراضه الجلدية واستمر فى الاتصال بالاشتراكيين الفرنسيين وكتب لهم عن برنامج حزب العمال الفرنسى سنة ١٨٨٠ وتكالبت المصائب عليه فافتقد زوجته سنة ١٨٨١ بعد معاناة بسرطان الكبد كما افتقد ابنته "جينى" وكانت قد تزوجت بـ "شارل لونفى" (١٨٣٩ - ١٩٠٣) وأنهار كارل ماركس وكانت نهاية عملاق التى سوف نركز عليها فيما تبقى من هذا الفصل الذى خصصناه له فى حوارنا المتواصل . انتهى عملاق فى ١٤ مارس ١٨٨٣ بعد أن ترك بصمات فى العديد من المواضيع

الاجتماعية التي تتصدر حالياً في الماركسية كنقد الأيدولوجيات ، التركم ، الاستلاب ، أنماط الإنتاج ، أزمة الجدلية ، ديكتاتورية البروليتارية ، الاقتصاد السياسى ، وعى العمال ، الدولة ، الإنتاج الإقطاعى ، قوة العمل الإمبريالية ، الصراع الطبقي ، المادية الجدلية ، فائض القيمة ، الربح ، نقد الاقتصاد ، ثورة الكادحين ... إلى غير ذلك من المواضيع التي تحولت إلى شعارات تبث هنا وهناك باسم الماركسية أو عبر قنوات المتمرسين ، ولعل خير ما يرجع إليه لمعرفة كل ما كتب عن ماركس والماركسية في إطار بحث جاد هو مرجع "رى بيل" بعنوان "انتاج كارل ماركس" وظهر في سنة ١٩٦٠ في باريس إلى جانب ما قدمناه من دراسات بالفرنسية عن أصول الماركسية وقدمه غيرنا من المتخصصين في الماركسيولوجيا أو المناضلين باسمها أو المتمرسين المتعاطفين معها أو المفندين لها بطريقة ضمنية أو بكل وضوح وقناعات فكرية ويبقى لنا نهاية عملاق وسوف نحاول من خلالها أن نطرح ما بين السطور عن هذا الرجل الذي لا يقل الجانب الخفى من شخصيته أهمية عن الجانب المعلن . وقد وضعنا هذا الجانب ما أمكن في إطار موضوعى وبقي علينا قبل أن נוهل نهاية عملاق أن نقدم وبموضوعية ما أمكن خفايا هذا العملاق لا كما تصورناها أو تأملناها ولكن كما قدمتها وثائق وشهد شاهد من أهله : الأستاذة الجامعية "فرانسواز ليفى" والتي تحمل عنوان "كارل ماركس تاريخ بروجوازي ألماني" وهي أستاذة لعلم الاجتماع حين كتابة هذا الكتاب وبجامعة "بيزانسون" بفرنسا مختصة بالاجتماع الحضري ونشر مؤلفها هذا في سنة ١٩٧٦ وهي في عرضها بدورها لم تقدم انطباعات وتأملات لهذا البرجوازي الألماني وإنما تركت وثائقه ومراسلاته تتحدث عن نفسها وكما خطتها يدها . فماذا عن خفايا هذا العملاق ونهايته ؟ وحينما نقول خفايا لا نقصد بذلك إفشاء الأسرار فهي لم تعد أسراراً بعد نشرها وبعد أن قرأتها الملايين ويبقى للقارئ العربى حقه في

أن يتعرف وكحد أدنى على الأقل على بعض ملامحها فكارل ماركس العملاق ليس ملكاً لنفسه ولكنه كثرات تاريخي يعنى المتعاطفين معه والمحبين كما يعنى بالضرورة المتواجهين معه والمتخاصمين ، ولكن من أين نبدأ مع هذا الجانب لكارل ماركس لنصل به إلى النهاية ؟ أمن طفولته فى سنواته الست الأولى حينما تحولت الأسرة ممثلة فى الأم إلى البروتستانتية بعد أن كانت تخشى من والدها اليهودى المتنكر لعقيدته أو حينما تحول "أونريش" والده إلى البروتستانتية قبل مولده بعام من اليهودية ؟ أو نبدأ به حينما عشق ملكة جمال "ترافس" الفاتنة "جيني وست فالن" ؟

من أين نبدأ ؟ سوف نسترسل بالتركيز على أحداث تبرز نفسها متميزة لما فيها من خصوصيات فيلاحظ - ونعطى على سبيل المثال لا الحصر - موقفه و "انجلز" من اليهودية فى مراسلاته الخاصة ، إلى جانب دراسته المعروفة بعنوان المسألة اليهودية حيث يسخر مخاطباً "لاسال" بأنه "ولد من الزوج الذين لحقوا بموسى حين رحيله لمصر وكثيراً ما كان يظهر الاحتقار لأصوله اليهودية بل وتنكره لها . كذلك يلاحظ عليه كسلوك فى موقفه من الأحداث سواء فى ذلك أحداث ١٨٤٨ فى فرنسا وكيف أنه كثيراً ما يظهر عكس ما يضمن ويتبنى مبدأ السلامة ولو على حساب التنكر للموقع حتى فيما يعنى موقفه من وحدة ألمانيا حيث يقول عن "بسمارك" : إن الإمبراطورية تحققت لا بطرقنا ولا بوسائلنا ولكنها تحققت فى أعماقنا حيث يعبر عن ميوله البرجوازية ، كذلك فيما يعنى موقفه من الاستعمار حين أعلن "باكونين" نقده لهذا الاستعمار وما يحدث فى الولايات المتحدة الأمريكية من استعباد وسخرة لأبناء الأرض فاتخذ "كارل ماركس" من المستعمرين موقفاً يدعو إلى الاستفهام وهو أنهم ما جاءوا إلى أرض الولايات المتحدة إلا ليحضرها لا أن يتركوها مستنقعا للكسالى والخاملين ، وهذا يلفت النظر من داعية الكادحين

ومنتقد المستضعفين ، بل كثيراً ما طرح الدارسون لسلوكه وبصفة خاصة "فرانسواز ليفي" في دراستها التي أشرنا إليها سالفاً وتحمل عنوان "تاريخ بورجوازي ألماني" حيث تشير في صفحة ٣٥٧ حيث أشير من بين الاتهامات التي كانت تتوجه له اتهامه بالتجسس وعلاقته المشبوهة بالكولونيل "بانجيا" الذي يعمل لحساب الحكومة البروسية كما أنها أشارت في كل من صفحة (٤٩ - ١١٣ - ١٥٢) إلى ما أسلفنا ذكره موضحة في صفحة ١٧٦ حياته في إنجلترا من ١٨٥٠ وصورت لنا هذه الحياة وما كان يكتنفها بالنسبة لزوجته من معاناة نظراً لأنهم كانوا يعيشون في حي الباغيات "سوهو" حيث أيضاً التعايش مع الكوليرا والفقر المدقع في غرفتين صغيرتين مع الأطفال والخادمة التي حملت سفاحاً من "كارل ماركس" وسنعود إلى هذا الموضوع في الأسطر التالية بعد أن نشير وباختصار إلى علاقات كارل ماركس بأصدقائه التي كان دائماً طابعها الوفاق في البداية ثم تتحول إلى تنكر وعداء سواء في ذلك مع "باكونين" والمشاحنات المستمرة بينه وبين "ماركس" وقضية ترجمة رأس المال للروسية وكيف أنه عزز "باكونين" وأخذ وثيقة عليه أن يرد أموالاً في مقابل الترجمة ثم استغل هذه الوثيقة ضده ، كذلك علاقته مع "برودون" بين "بؤس الفلاسفة" و "فلاسفة البؤس" وعلاقته مع "لاسال" وكيف أنه كان يرى أن "لاسال" - وكثيراً ما كان يجمله حين زيارته لألمانيا - قد كلفه الكثير من السلف والاستدانة ليستضيفه لديه في إنجلترا سنة ١٨٦٢. وأيضاً نشير إلى علاقاته مع المهاجرين الألمان وما صاحبها في الجمعيات السرية والرابطة الشيوعية من أزمات ومضاريات وتحالف وفك للتحالف وتعاون وتآمر فضلاً عن ما كان بينه وبين "ويلشى" ممثل المهاجرين الألمان من خصومات انتهت بدعوته لـ "ماركس" لكي يبارزه .. إلى غير ذلك من العلاقات التي كثيراً ما تستغل لكي تبرز طابع التنكر والنفعية عند "كارل ماركس" حين مهاجمته من خصومه أو المنقبين له على الفضائح ، وهنا نصل إلى جانب

له حساسية وهو العلاقات الحميمة لهذا الرجل التي لم تعد حالياً ملكاً له نظراً لشخصيته العامة التي أصبحت ملكاً لكل الباحثين وهنا لا يمكن حين طرحها أن ترى بمقياس التشفى أو النيل فهو أولاً وقبل كل شئ بشر له الجوانب الإيجابية كما أنه غير منزّه عن الأخطاء وليس له طابع العصمة فـ"كارل ماركس" الذين كثيراً ما طرح المتخصصون في سيرته بعض الممرات المظلمة ليسلطوا عليها الأضواء في سلوكه مثل قضية الاختلاس لأموال الفقراء واتهامه لسرقتها وما أثارته هذه من آصداء في الصحف الإنجليزية والألمانية سنة ١٨٧١ وأشارت إليها "فرانسواز ليفي" (صفحة ١٨٤) وأيضاً ما قام به من أعمال تجارية مشبوهة من مشاركته مع "موسى" في شركة للطباعة وما صاحب ذلك من اختلاسات وأشارت إلى ذلك أيضاً "فرانسواز ليفي" (صفحة ٤٠٢) .

ويقودنا الحوار وفي إطار العلاقات الحميمة لهذا المفكر العملاق الذي لم يعد ملكاً لذاته وإنما شخصية عامة يتساءل حولها الجميع إلى علاقته بهذا الأرستقراطية "جينى البارونة فون وست فالن" وتوجت بالزواج رغم أنها تكبره بأربعة أعوام وكيف أنها كانت تتمتع بالجمال والأناقة ، هذه الأرستقراطية التي تنتسب إلى أعرق العائلات البروسية تزوجت به مسيحياً في الكنيسة في الوقت الذي كان يكتب فيه عن المسألة اليهودية سنة ١٨٤٣ وأنجبت منه العديد من الأطفال مات أربعة منهم في سن مبكرة وبقيت ثلاث بنات وألحقت بها من أسرته خادمة تساعدها حينما كانت في بروكسل وانتقلت مع الأسرة إلى إنجلترا وهي "هيلين لانشين" لقد كانت هذه الخادمة مسيطرة على منزل "ماركس" وكانت على علاقة حميمة معه وأنجبت منه طفلاً غير شرعى وكانت تخشاها زوجته ، ومن الغريب أن هذه العلاقة كانت في فترة المعاناة حيث البؤس والديون والمتابعات والتبديدات والحجز والرهن ، وتحولت الأميرة البروسية "جينى" إلى هذه المرأة التي وصفت بـ"جينى الحمراء" في كتاب وضعه "بيترس"

عنها بالألمانية ليوضح فيه قناعتها بالنضال وأنها قريبة الشبه في موقعها من زوجها كموقع "مارتا" من "فرويد" زوجته حيث وصل بها الوفاء الكامل لأن ترقع له الملابس والجوارب وقبلت كل صنوف المعاناة سواء حين السكن في شارع "دين" حي "سوهو" حي الباغيات ، ومع هذا كان غريباً أن هذه البارونة لا تكن التقدير لامرأة مناضلة حقاً وهي هذه العاملة الأيرلندية التي كانت تشارك "انجلز" الصديق الحميم والذي تبقى لـ "ماركس" من بين أصدقائه وفيماً حتى النهاية كانت تحتقر هذه العاملة مما يلفت النظر ويدعو إلى الاستفهام هل في هذا الاحتقار تكريماً لـ "انجلز" أم إشفاقاً عليه أم شعورها أن هناك نضال ونضال ؟ ، نضال الأرستقراطيين ونضال الفقراء . وكثيراً ما رفضت هذه الأرستقراطية أن تعود بيناتها ليختلطوا بالنبلاء بل اختارت لهم حياة الفقر بين الفقراء .

وكم تبدو حزينة ومأساوية نهاية هذا العملاق كجسد وكأسرة رغم ما يغطيه حالياً من مساحات شاسعة في الكون بضوضاء فكره وأصدائه ، لقد تضاعفت المأساة في السنوات الأخيرة وزحف المرض إلى الأسرة ليتعايش مع الفقر ، فكان مرض "جيني" بسرطان الكبد ورحلت وهي في السابعة والستين من عمرها ودفنت في "هاى كات" بقسم المجهولين فلم يستطع "كارل ماركس" أن يصاحبها في رحلتها الأخيرة إلى القبر فقد كان بدوره يعاني من تكثف الأمراض وتنوعها وحصارها له فأضيف إلى مرض الجهاز الهضمي المزمن والكبد أمراضاً في العيون والأذن والأسنان ومنذ سنة ١٨٦٨ حتى وفاته تدمل جسد "كارل ماركس" واحتار الأطباء في تحديد أسباب هذه الدمامل والتقيح الذي عم جلده وكان يسبب له آلاماً مبررة وهذا ما دفعه إلى أن يرحل إلى المستشفى بالجزائر ولكن العلاج لم يفلح وتكثفت المعاناة التي لم تمكنه حتى من مصاحبة زوجته إلى قبرها وصاحبها "انجلز" مودعاً لها بكلمات وهي ثوى التراب . هذه الزوجة التي كتبت في لحظاتها الأخيرة إلى زوج ابنتها قائلة

(كما جاء فى مؤلف بيترس الهام بعنوان جينى الحمراء) : "لو أنه خير لى أن أعيش مرة أخرى لما تزوجت أبداً" وانتهى كارل ماركس بدوره عام ١٨٨٣ . بعد أن مارس حتى فى اختياراته ارتداداً مقنعاً وبخاصة فى موقفه من الإله والإلحاد والبلنكيين والبابا وتأكيد أنه لم يسع إلى إنكار الإله بقدر سعيه إلى تحرير الإنسان ، ودفن فى لندن تاركاً من بعده كأب فتيات ثلاث .

إن كانت "جينى" الابنة رحلت بعد وفاته بدورها إلى قبرها فى صمت فـ"لورا" وكذا "اليانور" رحلتا منتحرتان وإحداهما اختارت لذلك مع زوجها فى حفلات أعياد رأس العام ، إنها نهاية عملاق بقدر ما قدم من فكر بقدر ما طرح العديد من تساؤلات ، هذا الذى كثيراً ما يوصف مقارناً بـ"برودون" المفكر الفرنسى الاجتماعى الكبير أنه إن كان "برودون" يمثل البورجوازية الفرنسية الصغيرة فـ"كارل ماركس" بدوره هو ممثل البورجوازية الصغيرة الألمانية بحياته كإنسان وفى علاقاته وسلوكياته وبالتالى لا يمكن أن يفصل الفكر العملاق فى نهايته كإنسان . ويستمر بنا الحوار .

* * *

الفصل السادس

سينسر والتطورية الداروينية ونهاية عملاق

"هربرت سينسر" هذا الفيلسوف البريطاني المولود في "دربي" سنة ١٨٢٠ والمتوفى في "بريكتون" (ديسمبر ١٩٠٣)، هذا المفكر العملاق دون شك، كرس حياته برمتها للإنتاج الفكري والتأليف بعد محاولات محدودة في الأعمال الأخرى كإمتحانه للعمل في السكك الحديدية، وعمله في الصحافة، ومع هذا بقي المعمر العملاق أولاً وقبل كل شيء مفكراً ومؤلفاً استطاع أن يترك بصمات واتجاهات تذكره من بعده كأحد دعائم النظرية التطورية ومحاولة تطبيقها على المجتمعات البشرية بعد أن طبقها "داروين" في إطار الانتقاء الطبيعي وحتمية الصراع من أجل الحياة والبقاء للأصلح.

هذا المفكر نشأ في أسرة تحترف مهنة التعليم - والده وعمه كانا معلمان في المدارس - سهر أبوه وعمه على تربيته في طفولته وكان من البداية يعاني من ظروف صحية صعبة واضحة المعالم بل تركت بصمات على مسيرة حياته ورغم هذا تجاوز بهذا الجسد المنهك الضعيف الثمانين. رفض "سينسر" الذهاب إلى الجامعة بل ورفض أن يعمل في أي عمل كان، بل يلاحظ مسلسل القناعة برفضه وعدم تقبله لأي ارتباط حتى بعد أن انتشر صيته، أو أي لقب أو تشريف بل حياته الخاصة بدورها عانت معه من هذه الانفرادية الرهيبة. لقد قرر أن يكون حراً وحتى النهاية... فلم يرتبط، بل لم يفكر في أي ارتباط بزوجة أو رفيقة حياة، وإن كان في شيخوخته شعر بقصوره ولامست أفكاره ذكريات الوحدة والانعزال بل ذهب في بداية حياته إلى حد التوهم من أن الثقافة قد تلحق قيوداً بحريته، فكان يقلل من قراءاته وعمل في الصحافة منذ ١٨٤٢ أي وهو في الثانية والعشرين من عمره، وكانت كتاباته الأولى عن "حدود سلطة الدولة" ثم تحت تأثير قراءاته لنسق ستوارت ميل المنطقي

اتجه به إلى الميتافيزيقا كما أن قراءته لـ "كانط" أفرزت ملاحظات حول عاطفة الجمال والتسامي واضطرت الظروف أن يعمل كمهندس في السكك الحديدية ولكن لقليل من الوقت ، كما عمل محرراً في "الاقتصادى" ونجده في لندن (١٨٥٢ ومن ١٨٥٣) تفرغ لتأملاته وكان يعتقد أن له رسالة وهي أن يشرح كنه الكون ويفسر العالم معتمداً على العقل ، وعلى العلم ، وربما أزماته الصحية وتكالب الأمراض عليه ، وإصاباته المتكررة بالوهن جعلته في أزمة من الأزمات يقرر أن يكتشف قانون الكون أو المبادئ الأساسية له في عدة أجزاء واستمر بعد أن وضع مخططاً لذلك زهاء ستة وثلاثين سنة ، لكي يحقق هذه الغاية بل هذه الرسالة بصحة متأكدة وإفلاس مادي مكثف ، وربما هذا الأمريكى المعجب "إدوارد يومانس" لعب دوراً في مساعدته بل وحتى نشر أفكاره ، فمن المعروف أن أفكاره قد عرفت طريق الانتشار في أمريكا قبل أن تعرفها في موطنه إنجلترا وحتى سنة ١٨٧٠ كان "يومانس" هو الساهر على نشر أفكاره . وقد عين مديراً لجامعة ، ولكنه سريعاً ما قدم استقالته ... ولقد عرف أيضاً مفكرنا لمخظات الوحدة وكانت تسليته الوحيدة المشى في حجرته .

أنتج "سبنسر" وأنتج ، وتداخل في تخصصات ثلاثة واضعاً لها مبادئ وأسس وهي "البيولوجيا" و "السوسبيولوجيا" و "السيكولوجيا" فضلاً عن الأخلاق ، وكثيراً ما كان يستعمل معلوماته في تخصص ليوطنها في الآخر ، ومع هذا اتجه في أفكاره السوسبيولوجية وتحت شعار الحرية التي يقدسها إلى ما يشبه الحتمية البيولوجية ، حينما قاس المجتمعات البشرية كجسد بيولوجى أفرادهم خلاياه ، يخضع للنشوء والارتقاء وحتمية الصراع لبقاء الأصلح دون ألا يكون عنصرى النزعة أو يهدف إلى ذلك كما كان الحال مع "غوبينو" واضح نظرية "عدم تعادل الأجناس البشرية" بنزعته العنصرية ، بل اتجه "سبنسر" إلى القول بأن المجتمعات البشرية يمكن أن تتطور دون تدخل مشرع بقوانينها الطبيعية ،

ولا شك أنه كأحد رواد الفكر الوضعي فيلسوفاً تطورياً متميزاً انعكست أصداء نظريته في مختلف الأجواء بما في ذلك من تأثروا به في وطننا العربي ، أو التقوا به كما يذكر الإمام محمد عبده ، وتابع له "أوجيست كونت" أوصى به "سبنسر" هو محمد مظهر أو ترجموا أفكاره التطورية كـ "شيلي شميل" تحت عنوان النشوء والارتقاء ، جال "سبنسر" ومارس الترحال في أوروبا وأمريكا وآسيا وإفريقيا كما سنرى محاولاً الالتحام بالحياة والتعامل معها في عين المكان مطبقاً في مسيرته الفكرية للتسلسل في الظواهر من الأبسط إلى الأعقد ومن المتجانس إلى المتنوع .

انطلق في نظريته متأثراً بـ "داروين" كما تأثر بـ "مرجان" الأنثروبولوجي الشهير ولكنه تجاوز في أصالته لتطبيق التطورية موقع الإقلاع الدارويني رغم ما يحف الداروينية من إشهار وإعلان .

هذا "سبنسر" الذي قدم لنا سيرته أولاً بأول ونشرت في مجلدين سنة ١٩٠٤ بعد وفاته بعام ، وترجمت للعديد من اللغات بما في ذلك اللغة الفرنسية أولاً في سنة ١٩٠٧ ثم أعيدت ترجمتها ملخصة أو مفصلة وأصبحت وثيقة هامة تكشف لنا العديد من خفايا هذا العملاق كما أظهرها بنفسه .

"سبنسر" صاحب المبادئ الأساسية وواضع مبادئ علم الحياة ، وعلم النفس ، وعلم الاجتماع ، والاجتماع الوصفي ، في عدة مجلدات أيضاً ، هذا الجوال الذي كان رغم تعشقه لوحده وتعلقه بحريته يخالط المفكرين ويسعد بالتعرف عليهم من "هكستلي" إلى "ستوارت ميل" مروراً بـ "داروين" و "أوجيست كونت" بل نجد في دراسة نشرت في مجلة العالمين (فبراير ١٨٧١) يعلن أنه ليس فقط متأثراً بـ "كونت" وإنما هو من أتباع "سان سيمون" كما تعرف على البيولوجي الألماني "وايزمن" وحتى "إيليوت" حتى الأخلاقيات حاول أن يضع لها مبادئ في ١٨٧٩

و"التربية" و"عبقريّة العلم" إلى جانب كتابات ودراسات في مختلف دروب المعرفة حتى "الطب القديم" والأديان الأولى والمراسلات المتعددة التي جمعت ونشرت إلى جانب مؤلفاته ، إنه في كلمة واحدة منجم للفكر حافل بمختلف العطاءات .

سنحاول أن نتتبع - قبل أن نصل بهذا العملاق إلى نهايته - مراحل حياته خصوصاً عبر مقنعاتها وخلفياتها لننتعرف على حسه المعمق كل هذا لأنه لم يغفل دقائق حياته حين عرضها لنا بصراحة متميزة في مؤلفه الهام الذي أشرنا إليه سلفاً بعنوان "سيرة حياتي" في مجلدين نجده في ص ١٧٢ حينما يعرفنا بعلاقاته بالمفكر الإنجليزى المحبب لدينا لموقفه من الإسلام "كارلايل" يذكر لنا بالمناسبة وهو في الواحدة والثلاثين من عمره أن عزوبته تشغله وأنه ما زال حتى هذا السن بدون زواج كما يتكلم عن السكان ومناهج التربية والعزلة في الريف ، وأنه رغم النصائح التي تقدم له للزواج ما زال يفكر وأنه في انتظار ذلك وطد العلاقة بـ"أوجست كونت" و "لوى بلان" الذي كان من قواد أحداث فرنسا في سنة ١٨٤٨ وبقية السانسيمونيين ورحل إلى "باريس" زائراً لـ"فكتور هوجو" كما زار "أوجست كونت" بل أعلن فيما بعد أنه من أتباع سان سيمون كما أشرنا ، ومن الغريب أنه رغم اعتزازه بعزوبته يتكلم بإطناب عن الأطفال وملاحظته لهم واختياراته لتربيتهم ، وأنه يميل إلى الملاحظة الهادئة للعقل أكثر من ميله إلى اكتشاف عدوانيته وخطط لفلسفة قياسية في ١. مجلدات ، وأرسل إلى "داروين" نسخة من محاولته ولكننا نجده في ص ٢٧٣ من سيرته يوضح لنا الفوارق بين منظوره ومنظور "داروين" وأن القانون الأساسى لديه كما تصوره في سنة ١٨٥٩ أوسع بكثير وأعم من قانون "داروين" كما أشار إلى نقد "ستوارت ميل" له .

واستمر "سبنسر" في إنتاجه الغزير مصوراً لنا في سيرته هذه العديد من التأملات التي تكمل هذا النتاج بل وتفسره . ومع هذا لم يشغله

الحديث فى سيرته عما ينتج بالحديث عما يعانيه خصوصاً "المورفين" وما أدراك ما هو ، وكيف أن تعاطيه كان يملئ عليه أحلاماً أشار إليها ورحل عن جسده بجسده إلى إيطاليا وسويسرا كما رحل بفكره من البيولوجيا إلى السوسيوولوجيا وسار فى ترحاله جسداً أو فكراً ليستقر لفترة وجيزة زائراً ومصاحباً للقراغة (١٨٧٩ - ١٨٨٠) ولم يغفل أن يشير إلينا فى سيرته وما كتبه فى هذه الفترة عن علاقة الفكر بالمخ وأثر الغذاء فى ترجيه المخ . كما تحدث عن رحلته إلى الولايات المتحدة الأمريكية وعن مشاعره النفسية وتعاطفه مع الأطفال بل ورأيه فى البعث وأشارته إلى أن أصالة الحضارات فى ماضيها الشرقى ، وفى ص ٥١٩ من سيرته (حسب ترجمتها الفرنسية فى سنة ١٩٠٧) صرح بإدمانه للأفيون وأن الأرق قد استقر لديه وقرر مشاركته فيما تبقى من حياته . إنه يعلن معاناته من الأرق الرهيب الذى حرمه من نعمة النوم منذ عشرة أعوام حيث يقول : "منذ ١٨٨٢ قررت ألا أخرج أبداً للسهر وأن أنعزل"، بل حتى حينما استدعى فى البلاط الملكى لينصب فى أرقى المسؤوليات الأكاديمية أعلن شكره لهذا التكريم وفى نفس الوقت اعتذاره عنه .

غريب أمر هذا الرجل الذى مارس الحرية قولاً وفعلاً واتخذ من أعماقه ساحة لإعلان هموم الانسان .

إنه "هربرت سبنسر" الذى رغم وراثته لثروة كبرى فى نهاية عمره من عمه "وليم" بعد أن آلت إليه لم تغير هذه الثروة من سلوكه فى شئ . بل يلاحظ أنه أسس جماعة المساهمين فى لندن وهى جماعة يعنى بها لا للهروب من الضرائب وأنها المساهمين عن دفع الضرائب ، يذكر لنا "هربرت سبنسر" فى ص ٥٢٨ من الترجمة الفرنسية نصاً "إن ما يحزنه فى شيخوخته الآن شعوره بأن الزمن قد سرقه وأن الانتاج الفكرى قد غطى عليه جوانب أغفلها والآن يشعر بحرمانه منها" . يذكر "سبنسر" : أنه كم سيكون سعيداً لو أنه بجانب زوجته وأطفاله إلى جانب انتاجه ،

ولكن هذا يعنى التعامل مع المستحيل فما تفرغ له ليملاً به عمراً أفرغ حياته من الزواج ، بل يعلن وبنزاهة منقطعة النظير أنه كيف كان يمكنه أن يتزوج فى وقت الزواج المناسب وهو آنذاك ما كان يملك الكفاف فمن باب أولى كيف يعول أسرة إن لم يغذيها بالمشاركة معه فى البؤس والحرمان ... ويضيف : "وحيثما أقبلت الدنيا كان الوقت متأخراً ، ثم يعطى بعض الحيشيات ليبرر بل وربما ليخفف من معاناته فى أعماقه حين يؤكد أن الحياة المشتركة كثيراً ما تعنى ضياع الوقت فى المنازعات والتطاحن وعلى أتفه الأسباب ، وليس فى عمره فائض لذلك ، ومع هذا فالعمر فى طريقه إلى الاندحار . ويسترسل "سينسر" فى قوله : " إن ما ألفه من نتاج أعطى له بعض القناعات أن حياته لم تذهب هدراً وأنه رضى كل الرضا عما أنتج" ويلاحظ أن الشيخوخة أملت معطياتها فى أفكاره مما جعله يتأمل فيها بدوره ، وكيف أن الشيخوخة تملئ سلوكاً بل وتغييراً فى الأفكار يشعر به ويوضح .

وفى ص ٥٣٨ من سيرة حياته يطالعنا "سينسر" بهذا التأمل العميق فى الكون وفى أسرارهِ حين يقول نصاً : "لو نظرنا فى هذا الكون وما فيه من أسرار حملتها لنا ملايين السنين وسوف تحملها ملايين من السنين مستقبلاً لوجدناها تؤكد لنا أن الغموض الذى يكتنف علة هذا الكون لا يمكن لفكر إلا أن يسلم وبنزاهة أن ما أعطى من فكر يظل عاجزاً عن تفسير هذا الغموض بل هذا الخلود ، فاستيعاب الذكاء البشرى محدود وقاصر أمام هذا التحدى اللهم إلا إذا لجأ الفكر إلى التسلط والديكتاتورية فى فكره كى يغطى هذا القصور".

ويضيف فى نفس الصفحة ٥٣٨ : "إن القضية الكبرى تظل دائماً هى مصيرنا بعد الموت فهل توقف المادة يعنى توقف الفكر ورحيله إنه الغموض ثم إنتى - هكذا يؤكد سينسر - أنظر إلى الدين فى هذا السن من شيخوختى ، وفى نهاية المطاف نظرة التعاطف الذى يساعد العقل

على الفهم والتفهم وإن لم يصل إلى شيء محدد ، ومع هذا لا أقبل شخصياً الحلول المقترحة من رجال الدين ، وأملى - يشير سبنسر ص ٥٣٩ - أن يوجد حل لذلك في المستقبل .

لقد اشتد المرض على مفكرنا العملاق وهو فيما حول السبعين من عمره وأوقف مؤقتاً سيرة حياته ليعود إلى كتابتها بعد أن استعاد قوته مشيراً إلى أنه سوف يكملها حينما لا يجد شيئاً آخر يفعله . هذا العملاق الذى ترك لنا نتاجاً عريضاً واسعاً متشعباً غطى من المبادئ العديد من التخصصات ما هو جدير بالإشارة والتنويه كالمبادئ الأخلاقية ، وفى التربية ، وفى السوسولوجيا الوصفية فى عدة مجلدات وعبقرية العلم ودراسات أخرى فى مختلف دروب المعرفة ومراسلات هنا وهناك ، بما فى ذلك كما أشرنا ما كتبه عن مبادئ السيكولوجيا ، والبيولوجيا ، والسوسولوجيا ، والأديان ، والطب القديم ... مؤلفات رئيسية ونوعية شقت طريقها كما شقت له الطريق إلى الشهرة والتعريف فى أرضه وخارج أرضه واقترب نجم هذا العملاق من الأقول والمغيب وهو يتجه بأفكاره بعد التحدى فى سن الشباب لمعرفة قانون الكون وأساسه إلى المصالحة والتصالح وبخاصة بين العلم والدين" باعتبار أن الدين قد أخذ على عاتقه التعامل مع الغيبيات والشعائر مع الغموض الكامل ، وهو فى ذلك يبنى حيثياته على القناعة والتسليم أليس من الأجدر على العلم بدوره - يكرر سبنسر - أن يدع للدين هذا الميدان ، ولا يضارب على المستحيل فمن الخطأ الاعتقاد أن العلم يمكنه أن يكون فى هذه النقطة بالذات بديلاً للدين . ليبقى كل فى اختصاصه ويتحرك فى دائرته ، ومن هنا يترك الغموض والغيب للدين ، ويترك للعلم التعامل مع الظواهر وإدراكها بالملاحظة تصويرياً وتخطيطياً ، لاكتشاف ما يسيرها من عوامل انتظام وتكرار أو من قانون ، وهذا بلا شك سيكون لصالح الإنسان والمجتمع ، فالإنسان بقدر حاجته إلى العلم ليتقدم ويتفهم به إلى المستقبل ، بقدر ما هو فى حاجة إلى الدين لتكامل به

إنسانيته ... وانتهى العملاق كما انتهى "سان سيمون" مرتداً في تحديه وقمره ، وهو الذى ذهب فى شبابه إلى حد القول أن الخوف من الأموات أدى إلى الدين ، والخوف من الأحياء أدى إلى السياسة ، ليرفع راية المصالحة والتصالح فى النهاية وكل هذا فى سبيل إسعاد وإشراق الإنسان ، والرجوع إلى الحق خير من التماذى فى الباطل ، وهكذا نرى أن العملاق لا يضيره بحال أن يتمتع بوعى مستنير لا يتكهن ويتحفظ عبر مواقف جاهزة يضل بها ويضل ناشراً للزيف انطلاقاً من ذاته ليعممه على ذات الآخرين .

لقد كان "هربرت سبنسر" مفكراً جديراً بأن يوضع فى صفوف العمالقة لكى نتعرف به ومعه على نهاية إن لم تكن ككل النهايات فهى بحق نهاية عملاق تصدى لأسس ومبادئ التخصصات التى من خلالها يستوعب الكون والإنسان ... ونهاية عملاق لنظرية التطور تدفعنا بالضرورة ومن باب الموضوعية ونزاهة الفكر أن نتعرض لها كنظرية فى منابعها وأصولها وهنا يتصدر لنا علم تأثر به فى البداية "سبنسر" وكان علينا أن نتعامل معه إما كموقع للصدارة فى النظرية التطورية وما حوله يدور فى فلكه أو استمرار لها أو نقطة إقلاع لا يمكن أن تتجاوز ، وإن كانت تحجم فى إطارها الموضوعى رغم ما أحيطت به من إشهار وإعلان ... إنها "الداروينية" كان علينا أن نختار بين إفزاد فصل لـ "داروين" أو اتخاذ موقف عكسى تبنيناه : وهو بدلا من أن نلحق "سبنسر" بـ "داروين" وهذا كان المفروض مراعاة للتسلسل أن يحدث ، ألحقنا "داروين" بـ "سبنسر" رغم أنه وباعتراف "سبنسر" أنه فى البداية أهدي إليه ما كتب وما خط وليس العكس فلماذا لم نشارك الرأى السائد بل والمتصدر وهو حينما تلفظ التطورية أو يذكر النشوء والارتقاء تلقائياً يأتى فى الذهن "داروين" وإن كان ولا بد لـ "سبنسر" فهو المستأنس لهذه النظرية اجتماعياً ، باعتبار أن "داروين" المستأنس لها طبيعياً أولاً وقبل كل شئ وهنا نطرح تساؤلاً : هل بحق "داروين" هو أول مستأنس لها ؟ أم أنه رقم فى مسلسل اجتهد

كما اجتهد غيره من قبل وبخاصة على سبيل المثال لا الحصر "هانس لوى" و "ولاس" و "لامارك" ؟ يذكر "داروين" كما يذكرون فإن كان ولا بد من داروين كعملاق فلم لا على الأقل "لامارك" بما ذكر عن أصل البشرية و "ولاس" أيضاً عن "أصول البشرية" ولهذا ركزنا فى عملة نظرية التطور على "سبنسر" كمستأنس لها ويفخولة قادرة إجتماعياً بل ونفسياً فضلاً عن معطياتها البيولوجية ، ومع هذا وحتى لا نصل مع "داروين" إلى حد القطيعة سوف نفرّد له وفى إطار هذا الفصل دائماً عن "سبنسر" والتطورية ، جانباً إن كان من المفروض أن يشكل البداية فقد ارتأينا أن نطرحه وللأسباب التى أشرنا إليها فى النهاية . فماذا عن "شارل داروين" هذا العالم الطبيعى البريطانى (١٨٠٩ - ١٨٨٢) الذى أحيط بهيلمان الشهرة والإشهار والإعلام ليس فى مكان محدد ، بل وفى كل مكان . وهنا أيضاً قد يدفعنا الحوار إلى كيف صنعت هذه الشهرة ، هل خطط لها ورسم أم أنها جاءت تلقائية استحقها الرجل وجدير بها بقدر ما هى جديرة به . تساؤلات ستعامل معها فيما تبقى من الحوار الخاص . بفصل "سبنسر" والتطورية .

ولد "شارل داروين" فى عائلة علم أباً عن جد ، كان جده شاعراً وعالم نباتات بل وعالم حيوان ، وجده لأمه بدوره كان فناناً كبيراً . ومن حاشية الملكة "شارلوت" عمل والده طبيباً فى قرية ، ولقد اهتم بالفن والأدب أكثر من اهتمامه بالعلم ، وكان "شارل داروين" طالباً رديئاً ضعيفاً سواء فى المرحلة الثانوية أو حين دراسته للطب فى "أديميرة" أو فى "كامبريدج" حيث حصل بصعوبة بالغة فى النهاية على البكالوريا فى "اللاهوت" وهو يناهز آنذاك الثانية والعشرين من عمره . وما يلفت النظر أن هذا الـ "داروين" الشهير كثيراً ما كان يكون نفسه فى فترة العطلات والإجازات حيث كان يتجول فى الحقول ويتأمل بل ويعيش مع الصيادين وكان يميل إلى رفقة الأساتذة العلماء أمثال "غرانت" و "سيدرويك" فى كامبريدج ، وقد احتضنه "هانس لوى" وأوصى به وساعده لكى يجد

مكاناً في باخرة مبحرة إلى أمريكا الجنوبية بصفته باحثاً في الطبيعيات ، ولقد لعب هذا الحدث رغم عفويته دوراً رئيسياً في مستقبل الرجل . ولقد استمرت هذه الرحلة حتى عام ١٨٣٦ ماراً في طريقه على كثير من الجزر ، عابراً البرازيل ولقد أثرت هذه الرحلة وأشبعت طموحات هذا الباحث الشاب الذي ما كان منه كاعتراف بالجميل لمن أوصى به خيراً وهو "هانس لوى" إلا أن يرسل إليه بالعديد من ملاحظاته الهامة وما رصده أثناء رحلته ، وقد قام "هانس لوى" بنشرها رغم معارضة "داروين" لذلك ، وسرعان ما بدأ اسم هذا الباحث يتخذ طريقه بين أسماء البعثة الذين يشكلون آمال التقدم العلمى فى إنجلترا ، وهكذا عين "داروين" عام ١٨٣٨ أميناً لجمعية الجيولوجيا وفى سنة ١٨٣٩ وعمره لا يتجاوز ثلاثين عاماً كان يشفع باسمه كصفة يفخر بها ولقب بعتر به اختزال "ف . ر . س" بمعنى لقب الزمالة بالجمعية الملكية (Fellow of Royal Society) ، ومع هذا لم يكن له ميل إلى التدريس وربما يعزى ذلك لأنه كان طالباً فاشلاً ، وفى نفس العام تزوج "شارل داروين" من قريبة له "ويدكود" التى حاولت أن تجعل من هذا الرحالة الجائل رجلاً متحضراً ليس فقط هذا الجوال فى الحقول وعلى ظهور البواخر ، هذا الإنسان المعتل صحياً وبصفة دائمة بل أغلب وقته كان يقضيه فى سريره ما يجاوز اثنى عشرة ساعة كل يوم كان مع كل هذا يعمل . وما يلفت النظر عند "شارل داروين" هو مرونته الهائلة فى تعامله مع الآخرين بل قلما كان يستمع إلى بداية تطاحن أو شئ يؤهله للدخول فى مشكلة بل حينما كان ينقد ويهاجم لا يكلف نفسه مشقة الرد على معارضيه فكراً ، بل كان يترك هذه المهمة لمريديه يقولون الرد بالنيابة عنه فى الوقت الذى كان يعطى الأولوية المطلقة إلى جانب أبحاثه لزوجته وأطفاله السبعة فهو رب أسرة بمعنى الكلمة وكان أيضاً يهتم فضلاً عن ذلك بحمامه وزهوره ويميل إلى صحبة الأصدقاء فى منطقة "داون" فى مقاطعة "كانت" كان المفروض بالنسبة لأمثال "داروين" أن يعيش وقد أمنت له الحياة بما كان يصرف من معاشة لأسرته دونما حاجة

لمجهود فقد كان يعيش فى حياة مادية طيبة ومع هذا كان يركز على عمله الفكرى ولم يقبل أن يمارس البطالة المقنعة مكتفياً بإشباع رغباته المادية فكانت تطلعاته الفكرية بلا حدود ، وتسلى سلم الشهرة دونما ضوضاء حتى كانت المفاجأة التى وجهت إليه عبر ما يُعرف بمخطوط "ولاس" عن الأصول البشرية وقد سارع مريدوه وأصدقائه بنصحهم أن يسرع فى نشر بحثه عن أصول الأنواع البشرية وفعلاً تم هذا ولكن فى نسخ محدودة لا تتجاوز ١٢٥ نسخة ، وظهر فى ٢٤ نوفمبر ١٨٥٩ وحينما ظهر فى المكتبات بيع فى نفس اليوم ولم تبق نسخة واحدة من هذا المؤلف الذى أصبح تاريخاً علمياً متميزاً كمبحث فى جذور أو أصول الأجناس البشرية ومع هذا بدأ الهجوم المكثف - ولا نقول النقد المرن - لهذا المؤلف فى الأوساط العلمية بل واللاهوتية على حد سواء ، ولم يوضع فى الحسبان ما قدمه والده وجده من فضل وعطاء للكنيسة ، فقد اعتبر ما قدمه من بحث هدماً للمعبد على من فيه بما أعطاه من شروح عن أصول البشرية ، فقد اعتبر ولكن هل "داروين" وما قدم من تنظير فى التطور يتمتع بالأصالة التى كثيراً ما يغالى فيها وتنتفخ إلى حد إغفال حقيقة الأصلاء؟ لهذا ، أليس من الجدير أن يعطى لكل ذى حق حقه وأن تضاف النظرية إلى مؤسسيها ليأتى داروين كمطور لها بين المطورين وهنا يوضع إلى جانب غيره أمثال "سبنسر" السالف الذكر ... فما "داروين" إلا مطور لنظرية "لامارك" وغيره من السابقين وهى نظرية ثبت خطأها بعد ذلك . ونعنى بذلك النشوء والارتقاء عن طريق الانتقاء الطبيعى بالبقاء للأصلح المرتكز على النجاح والفشل وقدرة التجاوز والاستبقاء والإلغاء . ولقد كان لـ "داروين" موقف من الإله ومن التصور الدينى سنة ١٨٧١ وتطور الانسان من القردة ، وما صاحب ذلك من أفكار ، وضع داروين بالنسبة للإنجليز فى موضع المرتد ، رغم ما له من أنصار ومريدين ... ولكن هل لهذا أيضاً علاقة برفض مؤسسة من قمم المؤسسات العلمية فى الغرب له كمرشح ؟ وكيلت له الاتهامات المقنعة نتيجة لما مارسه فى

أبحاثه من أمور ارتأت هذه المؤسسة أنها بعيدة أن تؤهله لعضويتها ونعنى بذلك "أكاديمية العلوم الفرنسية" . وهناك أيضاً نظرية "لينى" فى الفصائل والأنواع البشرية تدحض نظرية "داروين" وأنه ليس هناك ثوابت بل كل شئ قابل للتغيير ولا يذكر لـ "داروين" والداروينية ما تتميز به عما قدمه "لامارك" السالف الذكر وغيره من السابقين . غير أننا نلاحظ أن "هوجو ديفرى" (١٨٤٨ - ١٩٣٥) أعطى لنظرية داروين حيوية فى إطار التغيير الظاهرى التلقائى وقانون التطور فيما يعنى التعدد فى التطور والتباين نتيجة للغذاء والوسط وهما الداعيان إلى التنوع والصراع من أجل الحياة ويعطى البقاء للأصلح . ولقد قدم لنا "داروين" أسساً للتطور الحيوانى والنباتى وله فى ذلك مؤلفات عديدة فهو بحق شغوف بالعلم طموح بلا حدود ، ولعل هذا الطموح لم يقف به "داروين" عند حد حياته المعاشة بل كان طموحاً فى تخليد ذاته ، ووضع لذلك مخططاً سهر عليه قبل موته فى أدق دقائقه وهذا الذى يدفعنا عبر حوارنا مع العمالة أن نضع السؤال التالى : إن كانت عملة "سينسر" تحركت تلقائياً وتطورت دونما افتعال أو تصنع وآلت به إلى ما آلت حين وداعه إلى مقبره الأخير من العرفان والاعتراف به ليس فقط كعملاق للفكر الإنجليزى وإنما لكل أوروبا بما فى ذلك من انعكاس لها فى الكون فانهاالت على نعشه كل مظاهر التشريف ، فمنحت الألقاب الرفيعة لاسمه بصفة رمزية كما منح الدكتوراهات المتعددة الفخرية وتشرفت جامعات متعددة برأسته الرمزية هذا كان "سينسر" دون أن يسعى أو يخطط فما قدمه للفكر الإنسانى قدم إليه البديل ، أما داروين فيلاحظ أن حياته رغم ما قدم من جهد لا يمكن إنكاره كملاحظ لتطور النباتات والحيوان هى أسطورة صيغت فى معمل الأصدقاء والمريدين ، بل وحتى أفراد أسرته وكان هو يخطط لذلك بذكاء ماهر بل ربما ما كان يتمتع به من مرونة هائلة فى المعاملة وتقبل للنقد مهما كان جارحاً وتجاوزه . هذه اللباقة لا يمكن أن ينكر دورها أيضاً فى أسطورة داروين بل يمكننا أن نقول هى نظرية اللباقة الداروينية أكثر

منها نظرية التطورية الداروينية إنه بلا شك قد أسهم في نظرية التطور وشغل حيزاً من ساحة الفكر الإنجليزى لا يستهان به ، معه ، أو ضده ، وعاصرته الضوضاء بين مريدين اتجهوا به إلى العبقرية وخصوم أنزلوه إلى موقع الارتداد ، هو عملاق ولو كأسطورة ، ولكن تبقى النظرية التطورية قياساً مشتركاً بينه وبين "مبسنر" وغيرهما ، ولم لا ؟ وتعود الأصالة إلى السابقين كما تعود إلى المتطورين دون إغفال لمساهمات أى كان موقعها . ويسير بنا موكب العمالقة لنتلقى بعملاق وفى هذه المرة فى الفكر الجرماني ونعنى به "ماكس فيبير" هذا الذى انطلق من الماركسية ليصبح فى قمة التحدى لها ، والتفنيد المتميز لعطائنها ، مما جعل بصماته تترك ويدورها فى شكل متميز عبر ساحة الفكر الليبرالى ليس فقط فى ألمانيا مسقط رأسه ولكن فى الغرب الليبرالى بصفة عامة .

فماذا عن "ماكس فيبير" ونهاية عملاق ؟ .. وهذا هو موضوع الفصل التالى .

* * *

الفصل السابع

ماكس فيبر ونهاية عملاق

ماكس فيبر مفكر بدوره عملاق شغل ساحة الفكر الليبرالى بقدر ما شغل "كارل ماركس" ساحة الفكر الاشتراكى الذى كثيراً ما يحمل اسمه . فـ "فيبر" موسوعى النزعة أسهم فى الدراسات الاقتصادية كأحد منظرىها كما أسهم فى الدراسات السوسولوجية بل يعتبر رائداً من الرواد البارزين لسوسولوجية الأديان ولد فى "ارفورت" يوم ٢١ إبريل ١٨٦٤ بشرق ألمانيا وكان أكبر إخوته سليلاً لأسرة عريقة متدينة سهرت على تربيته تربية دينية وثقافية متمكنة حيث كان لوالده مكتبة أسرية هامة وكان الوالد بدوره متفتحاً على ثقافة عصره ومفكرىها من "شكسبير" و"سبينوزا" حتى "جوته" و "شبنهاور" مروراً بـ "كانط" هذا الوالد الذى كان يمارس العمل الدبلوماسى كما كان عضواً فى البرلمان على عهد "بسمارك" الذى كان يكن له فيما بعد تعاطفاً ومناصرة فى فترة من حياته ، وحتى الوالدة كانت تتمتع بمستوى لا بأس به من الثقافة ولها نشاط اجتماعى متعدد وكان بيتها صالوناً من صالونات الفكر كثيراً ما يجتمع فيه صفوة القوم ورجال السياسة والأكاديميين من جامعة "برلين" وغيرهم ... فى هذا الجو نشأ ماكس وترعرع وبعد أن أكمل دراسته الثانوية التحق بجامعة "هايدلبرج" حيث عكف على دراسة القانون والاقتصاد فضلاً عن إشباعه لميوله الفلسفية ، كما عرف أروقة جامعة "برلين" و "جوتنجن" واجتاز امتحان الدراسات القانونية عام ١٨٨٦ ليلتحق بسلك المحاكم ببرلين ولم يمنعه ذلك من أن يكمل دراسته العليا ليحصل على الدكتوراة عام ١٨٨٩ ، ويمارس تدريس القانون بجامعة "برلين" ثم الاقتصاد بجامعة "فريبورج" ليصبح أستاذاً لكرسى الاقتصاد بجامعة "هايدلبرج" خلفاً لـ "كينز" الاقتصادى الشهير .

ولم تقف اهتمامات "ماكس فيبر" عند حد الدراسات القانونية بل كانت

له اهتمامات أخرى بمختلف فروع المعرفة فى المجتمعات البشرية قديماً وحديثاً . تزوج فى عام ١٨٩٣ وتنقل أستاذاً فى الجامعات الألمانية فعمل بعد "هايدلبرج" فى جامعة "قريبورج" وضاعف وكثف من نشاطه ، ولكنه ومن الغريب وفى نفس الفترة التى عانى منها عملاق آخر ونعنى بها نهاية القرن ، وكأن نهاية القرن تحمل الشؤم كنهاية للعمالقة وتآزم "ماكس فيبر" كما تآزم "نيتشه" فقد أصيب بانهيار عصبى كلفه سنوات طوال من المعاناة باحثاً عن الاستشفاء فى نفس إيطاليا التى عرفت معاناة "نيتشه" وقضى فى روما فترة من العمر أبعدته عن القراءة والتأليف وأرغمته على العزلة والانعزال ، ولكن على عكس ما تم له "نيتشه" لم ينته المطاف بعلاقاتنا نهاية المأساة النيتشواوية المحزنة ، ولكنه تعايش وبإصرار مقاوماً لمعاناته ، بل استطاع أن يقدم لنا فى سنة ١٩٠٤ ما كان سبباً فى إشراق شهرته وتصدره فى ساحة الفكر ، ونعنى بذلك النظرية الهامة التى تركت ليس فقط بين معاصريها ما تركته من أصداء ، وإنما ما زالت حتى اليوم تذكر كدعامة قوية قادرة من دعائم تبرير الرأسمالية بنفس القدر الذى تعتبر نظرية أخرى معاصرة قدمتها ألمانيا لا تقل جبروتاً عنها ، من حيث الفكر ، ولكن فى الساحة المعارضة ونعنى بها "روزا لكسمبورغ" الأستاذة الجامعية الألمانية أيضاً والتى قدمت نظرية أسهمت فى انبعاث الماركسية المتأزمة نظرية "تراكم رأس المال" ، أما نظرية منكرنا الذى نحن بصدده فقد كانت بعنوان "المبادئ الأخلاقية أو (الايثيك) البرتستاننتية ، وروح الرأسمالية" ، وسافر ماكس فيبر إلى أمريكا مبدياً لتعاطفه مع النظام هناك ، وليتعرف على الشهرة والاشتهار ويصبح أستاذاً زائراً فى العديد من الجامعات إلى جانب ما ذكرنا كجامعة "فيينا" و "ميونيخ" وينتقل وتتنقل معه شهرته وأصدائه ، هذا المتعايش مع المعاناة والمواجه لها ، والقادر على احتوائها ، دون كلل أو ملل ، غير أنه وما زال فى السادسة والخمسين من عمره أصيب بالتهاب رئوى حاد أنهى حياته فى سنة ١٩٢٠ تاركاً من ورائه اسماً

متصديراً ومنظراً متميزاً إن كان قد تأثر في بداية حياته بالماركسية كما تأثر به "دوركايم" و "باريتو" فقد أثر في الكثير من بعده وعلى سبيل المثال يعتبر أحد رواد السوسيولوجيا المعاصرة في الولايات المتحدة ونعني "تالكوت برسنس" أحد شراحه والمبرزين لعطائه ليس فقط في إطار السوسيولوجيا بل الاجتهادات المنهجية والتوفيق بين العقل والواقع ، وتفهم الروابط العلائقية بين العلوم الاجتماعية باعتبار أن "ماكس فيبر" لا يمكن تجاهل إسهاماته في هذا المضمار ، فهو فضلاً عن شهرته كمنظر الليبرالية تحت شعار الترابط بين "الأخلاق البروتستانتية والروح الرأسمالية" فهو يذكر بلا شك كمنظر أيضاً لسوسيولوجية الأديان خصوصاً في إطارها التفهيمي لسوسيولوجية تفسير معاني السلوك وتحاول استكشاف الدوافع على ضوء أنماط سلوكية مثالية باعتبار أن النمط المثالي يوجد في عالم الأذهان بينما السلوك الاجتماعي متبادل ينشأ عن علاقات تحتكم للسيطرة أو القوة والصراع والزعامة ، الخ ... بوصفها كأشكال للعلاقات تعكف السوسيولوجيا على تفهمها ، واهتم بالتنظيم الاقتصادي والاجتماعي إلى جانب اهتمامه بتفسير وفهم السلوك كما أشرنا . ولقد حاول في نظريته أن يتصدى للماركسية بطريقته رغم أنه في البداية تأثر بها ، إنه مفكر توفيقى يحاول الربط بين الضبط والتقنين موسعاً لإطار مناقشاته الفكرية محاولاً تغطية العديد من التخصصات بتنظيره لها والذي لم يقف به عند حد ما أسلفنا ذكره وإنما حاول أن يتعرف على الحضارات الأخرى خصوصاً الحضارة الشرقية بعد أن استوعب على حد منظوره الذاتى للمسيحية كلفانية وكاثوليكية ، بل وأعطى حيثيات لقناعات البرتستانتي بالرأسمالية من حيث أن الكلفانية تشجعه على الادخار والاستثمار والتحمس للودائع والتدبير وتدعوه إلى تقديس العمل واحترام المهنة والالتزام بالواجبات والقواعد ونبذ التواكل والاسترخاء وتفرض عليه الحركة والنشاط والكسب فضلاً عن التحلى بالأمانة والصدق في القول واتقان الحرفة وتبجيل المهنة ، هذا السلوك البرتستانتي

الكلفاني باتيكياته - أى أخلاقياته - هو بلا شك متكامل مع روح الرأسمالية ، أما فيما يعنى الأديان الأخرى الشرقية فيلاحظ أن "ماكس فيبر" على عكس ما أبداه من إعجاب بمسيحية الخلاص والصلاح والنجاة بقدر ما كان قصير الفهم رغم دعوته إلى التفهم ورفعته لرؤية ما أطلق عليه "العلاقة العلية" أو "منهج التوافق" وذلك فيما يعنى الإسلام فما قدمه عن الإسلام يبدو وكأنه مواقف مبيتة فورية وعفوية ... فبالنسبة له الإسلام دين حربى يقوم على القوة العسكرية وإن كان قد أشار فى معرض دراسته للإسلام لبعض ظواهره الاقتصادية كالزكاة وإن كان بصفة عامة اهتم "ماكس فيبر" بالأديان وبالكارزمية والقوة الكامنة المسيرة للزعامة أو الزعيم الملهم مبعوث العناية الإلهية وأعطى أمثلة بـ "الكسندر" و"يوليوس قيصر" و "نابليون" و أبطال "هيجل" و "القوة الكامنة فى ألمانيا" باعتبار أن هذه القوة الكامنة الخفية المتعددة الوجوه تحقق إرادة العالم ... وهذا إن دل على شئ فإنما يدل على تعدد اطلاعات "ماكس فيبر" واهتماماته بما جعله يقدم إسهامات فى العديد من ضروب المعرفة بل تعتز به السوسيولوجيا كمنظر حاول أن يطرح أرضية تفهيمية لدراسة الظواهر الدينية وكيف أن هذه الظواهر تؤثر فى البنية الأسرية والاجتماعية وفى العلاقات تفهم يستوعب بفضل الإدراك المباشر لمعانى السلوك الجماعى الداخلية بغية شرح وتفسير ما هو مسبب لها وأن السلوك يكون جماعياً حينما يكتسب نتيجة لسلوك الآخرين ويترتب عليه .

يذكر "ماكس فيبر" متصداً حينما تطرح الليبرالية على مستوى التبرير والتنظير باعتباره عميداً من العمداء فى هذا المجال لا يمكن إغفال ما قدم من اجتهاد وهو بلا شك أعطى لألمانيا البروتستانتية من الحيشيات ما يجعلها أكثر تجاوباً وتفاعلاً مع الرأسمالية ، ليس فقط فى عصره بل حتى يومنا هذا ، فألمانيا التى قدمت لنا عملاقاً آخر هو "كارل ماركس" احتفظت فى غالبيتها بالانتماءات التى أعطاها "ماكس فيبر" من حيث

العلاقة العضوية بين البروتستانتية والرأسمالية وألقت بالماركسية خارج أرضها لتثبت في روسيا القيصرية وتنمو وتتشعب لتصل في النهاية إلى الجانب الشرقي من ألمانيا ، ومع هذا ظلت ألمانيا بغربيتها "قيصرية" النزعة بطريقة أو بأخرى وحينما يتطلع الألماني للنزوح وتجاوز الستار الحديدي في حواجز برلين ، فإنما ليجتاز من الشرق إلى الغرب وليس العكس ليترك ألمانيا "كارل ماركس" إلى ألمانيا "ماكس فيبر" . فماكس فيبر من هذه الزاوية لا يمكن إنكار عمله كما لا يمكن إنكار عملة خصمه وعنيده "كارل ماركس" ، تأزم هذا العملاق وعانى من الانهيار العصبي معاناة لم تلق به في عالم النفايات والتهميش ، ولكنه استطاع متعاشاً معها أن يلتقي بها هو في عالم التهميش . ذهب ماكس فيبر وبقيت لنا أصدائه عبر عديد من المعاصرين من "كالكوت برسنس" حتى "كارل مانهايم" وغيرهما الكثير ...

وهكذا أنجبت ألمانيا عمالقة وعمالقة برزوا في عطائهم وتصدروا كما برزوا في معاناتهم وتصدروا ، منهم من استطاع أن يتعاش مع المعاناة ويحتوى الانهيار ليصل بعملته إلى غايتها ومطافها ، منهم من أنكر وانفجر ويقدر ما كانت المعاناة كان صوت الانفجار ووقعه .

لقد استطاع "ماكس فيبر" ومن قبله "كارل ماركس" رغم التباين أن يتساكنا مع الآلام في نهاية العمر ليصلا إلى قبرهما دون ضجيج أو ضوضاء ، غير أننا نلاحظ بالنسبة للعلاقة الذي سوف نتصدى له في الصفحات التالية كيف أنه برز وتصدر بصفة استثنائية جعلته علامة استفهام كبرى في تاريخ الإنسانية المعاصرة ، علامة استفهام يطرحها المعجبون والمتعاطفون كما يرفعها المعارضون والمتسائلون إنه "فريدريك ولهم نيتشه" فماذا عن هذا العملاق وكيف أن نهايته كانت متميزة من بين النهايات ؟

* * *

الفصل الثامن

نيتشه ونهاية عملاق

إنه "فريدريك ولهم نيتشه" اسم متميز ليس فقط في الفلسفة المعاصرة كفيلسوف القوة ، وإنما في الفكر العالمى وعلى كل مستويات التحدى والإصرار ، ولد عام ١٨٤٤ فى "ريكن" قرب لتسن ، ورحل مع مطلع هذا القرن ، وقبر فى "قيمر" حيث استقر فى مثواه الأخير مستريحاً من معاناته ، وذلك فى الخامس والعشرين من شهر أغسطس ١٩٠٠ ، ولكن من أين ننطلق فى حوارنا مع هذا المفكر المتميز فى فكره وإصراره بقدر تميزه فى معاناته وآلامه ونهايته ؟ لقد نشأ فى بيئة كنسية فوالده كان راعياً لكنيسة "هركارل لودفيج" ووالدته بدورها تنتمى إلى أسرة متدينة وسليمة لرعاة الكنائس.

وليكن انطلقنا من والده ، وكيف ترك بدوره بصمات فى ذهنية هذا الطفل "فريدريك" حيث احتضر مدة طويلة قبل أن يموت ، وكان الطفل "فريدريك نيتشه" يلاحظ هذا الموت البطئ وهذا الاحتضار المرير الذى ترسب فى لا شعوره دون شك ، ومات الأب فى ٣ يوليو ١٨٤٩ ولم يتجاوز نيتشه الطفل خمس سنوات . لم يتأثر نيتشه الطفل بمعاناة والده واحتضاره فحسب ، وإنما أيضاً تأثر بما ورثه منه . فقد ورث صحة عليلة ومعتلة دون انقطاع ، عاش أولاً فى "نومبورج" بجانب والدته وخالته وكانت تتميزان بأخلاق صارمة ملتزمة وأخته أيضاً بدورها .

وفى ١٨٥٣ بدأ يتابع دراسته بالمؤسسات المدرسية لبقى فيها ستة أعوام ، ومنذ الثالثة عشر من عمره استعاد "نيتشه" من ترسيبه اللاشعورى تسلط فكرة الموت المسيطر والتطلع الى الشقاء ، وترجم ذلك فى قصائد شعر عام ١٨٦١ مستعيداً لذكرياته أى لم يتجاوز السابعة عشر من عمره ، ووضع لها كعنوان "الإله المجهول" ثم سجل فى جامعة

"بون" ليتابع ما تبنته العائلة في تقاليدها ، ونعنى بذلك دراسة اللاهوت ولكنه اهتم أيضاً بالفيلولوجيا ، وتأثر بالعلامة "ريتشل" الذي أبدى له اهتماماً به . وانتقل بعد ذلك الى "لايبزج" متبعاً لخطوات أستاذه .

وهنا نلاحظ أن "نيتشه" قد اكتشف شخصية لها ثقلها في الفلسفة الألمانية عبر مؤلفها الأساسي "العالم كرهبة والعالم كتمثل" ونعنى بذلك "شوينهور" كما أن "نيتشه" الشاب التقى بفاجنر بعد إلقائه لعرض موسيقى رائع . وكان اعجابهما المشترك بـ "بيتهوفن" غير أن "فاجنر" اتجه بعد ذلك إلى "تريبشن" بجانب "لوسرن" لكي ينغمس في مؤلفاته الموسيقية حيث جمال الطبيعة وروعيتها يوحى له بعمق النغم ورقة الإيقاع ، وأما "نيتشه" بدوره فقد اختير لكي يكون أستاذاً فوق العادة في جامعة "بازل" في سويسرا . وهكذا رحل كل في طريقه ولكن في مناطق متقاربة في سويسرا حيث تولدت بينهما صداقة وتعاطفاً عمرت أكثر من ثمانية أعوام تركت بصماتها كعلاقات متميزة رغم أنها أقلعت في البداية من غيبة التفاهم الكامل ، الذي ظل علامة استفهام كبرى بين الرجلين .

ونعود إلى نيتشه حيث عرف النجاح في جامعته لكي يصبح في فترة وجيزة أستاذاً مرسماً وذلك عام ١٨٧٠ وهو لم يتجاوز السادسة والعشرين من عمره . ومع هذا ظلت محاضراته القيمة عن الفيلولوجيا وعن مولد الفلسفة في عصر التراجيديا الإغريقية دون نشر حتى سنوات متأخرة إذ أنها نشرت عام ١٨٩٦ ، كما نشر له عام ١٨٧٣ تأملات في غير الألوان ، استراوس ، ثم (١٨٧٢ - ١٨٧٤) فوائده التاريخ للحياة ومضاره ، وفي عام ١٨٧٤ "شوينهور" العربي ، (١٨٧٥ - ١٨٧٦) ريتشارد فاغنر . ولم تعرف قدرات "نيتشه" وعطائه الأصيل التعاطف والاعجاب ، بقدر ما خلقت له مسلسلاً من المشاكل خصوصاً وقد برز كفيلسوف يركز اهتمامه على ما قبل "سقراط"

منفرداً بذلك بين زملائه الأساتذة ، وكذلك بالنسبة لطلابه . ويلاحظ في هذه الفترة عمل "نيتشه" كمتطوع في التعريض خلال حصار " ميتز " ولم ينعه تطوعه هذا من أن يضع البصمات الأخيرة لأصل التراجم عام ١٨٧٢ ، ثم استرسل في نشره لمحاولاته الفكرية واتجه بها في بيئة غير متقبلة لعمله إلى العزلة والانعزال وحاول أيضاً أن يعيد الوفاق مع صديقه "قاجنر" وأن يتصالحا ، ولكن لم تجد هذه المحاولات ، وبدأ الإعياء يشق طريقه إلى جسد هذا الفيلسوف فانتابته موجات تلو موجات من الصداغ الدائم ، واضطراب في النظر ، وقرر " نيتشه" أن يعود إلى جامعته " بازل " ليستأنف محاضراته فيها ومن الغريب أن فيلسوفنا - وهذا شيء يلفت النظر - استأنف محاضراته فيها ، فقاطعها الطلاب . وفي هذه الفترة كتب "إنساني وإنساني للغاية والفجر" عام ١٨٧٨ ، وفي ١٨٧٩ بعد أن قدم استقالته التي قبلت بدأت مسيرة المعاناة حتى القاع ، غير أن القلم لم يفارق يده كان يكتب ويكتب وخط من بين ما خط في هذه الفترة الحزينة "الراحل وظله" عام ١٨٧٩ ، ثم أقام في صحبة صديقه "بيتر كاست" (١٨٥٤ - ١٩١٨) بالبندقية ، ومنها اتجه إلى "جنوه" حيث استقر فيها ووضع سمات المشروع الذي يريده على ضفاف بحيرة "سلزماريا" ، حيث كان الاستلهاً . واستمر ترحال فيلسوفنا متنقلاً بين نيس بفرنسا شتاءً وصيفاً في سلزماريا ، بينما في الفصول الأخرى من السنة عبر أماكن مختلفة منها تورينو ، والبندقية وغيرها في السنوات التالية (١٨٨٠ - ١٨٨١ - ١٨٨٢ - ١٨٨٣) . وفي هذا العام توفي "قاجنر" ، أما "نيتشه" فقد تابع نشاطه الفكري في التأليف متعاشياً مع كل ظروف المعاناة فكانت "المعرفة المرحّة" عام ١٨٨١ أو العلم المسرور (كما ترجم البعض العنوان هكذا إلى العربية) ، وكتابات في عدة أجزاء عن "زرادشت" أو "زرادوتشترا" أو كما نقلت كعنوان بالعربية : هكذا قال أو تكلم زرادشت (١٨٨٢ - ١٨٩٢) ، وإرادة القوة (١٨٨٣ - ١٨٨٨) ونشرت بعد وفاته ، وعبر الحير

والشر عام ١٨٨٧ ، ومقدمات عام ١٨٨٦ وعروق الأخلاق أو نسبها عام ١٨٨٧ وغروب الإله المزيفة أو شفق الإله عام ١٨٨٨ ونيتشه ضد قاجنر عام ١٨٨٩ ، وضد المسيح عام ١٨٩٥ ونشر في ١٩٢٠ ، وهذا هو الإنسان نشر في (١٩٠٨ - ١٩٠٩) .

وهكذا كانت غزارة الإنتاج وتعدد وتنوعه بقدر غزارة المعاناة ، وقوتها وتنوعها ... فبجانب الهموم الصحية والمعنوية أضيفت الهموم العاطفية فقد قدمت له صديقتة "ما لقيدا" في روما ١٨٨٢" لو أندرياس سالومية" حيث اكتشف فيها مفكرنا الذكاء الخارق فكانت لها المكانة المتميزة ، وليست مجرد تابعة بين الأتباع والمريدين ، ولكن سرعان ما اكتشفت هذه الوليفة الأليفة طباع "نيتشه" الغريبة كما وصفتها ، فقطعت علاقاتها معه لتصل به إلى قمة الآلام وذروة المعاناة وتنقل من جنوة إلى نيس مريضاً ، وتداخلت لديه الأمور ، والتبس في ذاته مقلعاً بعوارض الجنون في شتاء ضبابي مؤذناً ببداية الكارثة ، وحملت رسائله إلى أصدقائه القدماء أصداءها فحضر من صقلية صديقه الوفي "أوفيرييك" الذي قاده إلى دار للمجانين في ألمانيا مع أمل مفقود في شفاء العليل ، وانطوت صفحة عملاق تحدى العقل ، والأخلاق ، والفلسفة ، واصفاً لكل هذه الأسس بالوثنيات مبشراً بالإنسان الأعلى الخارق ، ونسى إنسانه في غمرة الوعي ، وضاع عنه كيانه ، وباسم السيادة والسيطرة والقوة ، والمغامرة ، والمحاضرة وتصفية الحسابات مع كل شيء افتقد كل شيء ، فقد غاب عنه ، وهو في غمرة الدفع والتحليق بإنسانه والتغنى بقوة المفتعل ، أن يتذكر الجانب الأخير من الإنسان الملموس ، وهو الضعف كما يقول الحق سبحانه : "يريد الله أن يخفف عنكم ، وخلق الإنسان ضعيفاً"^(١).

لقد ترك نيتشه آثاراً مع هذا تشهد على طبيعة تحديه وعناده وشغلت حيزاً لا يستهان به في تاريخ الفكر الإنساني المعاصر فكتب عنه الكثير

لشرح وتحليل فكره ، وعلى سبيل المثال لا الحصر "هيدجر" أحد رواد الفلسفة الوجودية ، كما كتب عنه "كارل جاسبرس" وهو لا يقل شهرة عن "هيدجر" إلى جانب "اندلر" ، و"بارونى" وغيرهما ، وترجم فكره إلى ثقافات أخرى غير الجرمانية وتصدر بنزعته "الهيرقليطية" وتحفظاته على الفلسفة ، والأخلاق ، وحتى على العلم والعقل ونقده للحضارة وطرحه لأخلاق السادة ، أمام خَلَقِيَّات العبيد عبر تاريخ الإنسانية مبرزاً لكِثَافِ الضغائن المترسبة فى صراع البشرية بين القوى المجازف ، والمغامر والباحث عن الأخطار ، والضعيف المستكين المزكى لخنوعه ، بمسلمات تبريرية مبرزاً ذلك فى الصراع بين اليهود والرومان ، وأصداءه فى المسيحية ومستمراً فى رؤيته لمنطوق الصراع كما تصوره حتى بالنسبة لحركة الإصلاح الدينى وتقمصها لمداخلات ما سبقها منذ اليهودية جاعلاً من ناهليون رمزاً لأخلاق السادة وغيره من خوارق الرجال فى تاريخ الإنسانية ، وحتى الفلسفة لم تنج من نقده وتشريحه لها منذ سقراط فضلاً عن الدين ، إن نيتشه يرمز لتمرد العقل حتى على العقل فى النهاية ، وينحنى الخير أمام القوة لتصبح الحياة لديه إرادة وإرادة القوة والألم ، رافعا لشعاره "من لم يتمكن من قتلى قد ضاعف من قوته فانسائنا اليوم عوامى لا يتجاوز مجرد المدخل للإنسان القادم صاحب القوى الكامنة "وكما تكلم زرادشت" إنى أخاطبكم بخطاب الإنسان الخارق ، فماذا فعلتم من أجله ، من أجل الإعلاء بالإنسانية ، إيماناً بسنة التطور لا بنكسات الارتداد ، الإنسان الأعلى ، الإنسان الخارق ، لا يتهيب المعاناة والحرمان بل يبحث عنهما".

هل كان نيتشه يهدف بتطلعاته إلى تأسيس مدرسة فلسفية منه وإليه ؟؟؟ أم أنه مثالى ركز على تنفيذ الواقع الملموس وانساق فى تنفيذ ليقوده الى التمرد بوعيه الشقى باسم الإنسان على الإنسان ؟ متذكراً لأى حالة خارج الذات ولا مرجعية للإنسان إلا من صنع قوة الإنسان ... التى قادت متفجرة الى الهاوية ، تفجرت فيه بعد أن افتقدت معاييرها

وسننها ، إن نيتشه أراد أن يخلف الدين والفلسفة والأخلاق ، بل والعقل باسم العقل ، فافتقده في نهاية المطاف ، وكانت نهاية عملاق وأي عملاق ترك بصمات هنا وهناك لدى العديد ممن تأثروا به وبأفكاره إلى حد تمثّل مأساته ومعايشته في جحيم جنونه ، وهذا بالضرورة يقودنا إلى إعطاء ولو نموذج من هؤلاء الذين تأثروا به وعلى سبيل المثال لا الحصر نتحاور معه في الفصل التالي ، وبخاصة هو معاصر له فضلا عن أنه لا يقل عنه مأساوية ولا شهرة ولا عملاقة وإن كان في مجال الإبداع المسرحي والنقدي للمجتمع مما آل به ويدوره إلى ريادة متميزة في حضارة الغرب ونعني به "يوهان أوجست سترندبرج" أحد عمداء المسرح العالمي. فماذا عنه وعن نهايته كعملاق ؟

* * *

الفصل التاسع

سترندهرج ونهاية عملاق

ذكرنا في دراسة سابقة لنا عن هذا المفكر ، لمختصت بعض أصدائها ، بالعربية في "ناقذة الأدب العالمى" التى تفرد لها مجلة الدوحة القطرية جانباً من صفحاتها وتحت عنوان "الغوص فى خفايا الباطن" سنة ١٩٧٧ ، أنه "منذ أربعة عشر عاماً (أى سنة ١٩٦٣) وفى جزيرة جان جاك روسو القابعة تحت أعتاب مدينة جنيف عند منطلق نهر الرون فى نهاية مطاف بحيرة ليمان ، وبجانب شجرة فيها تساقطت أوراقها فى مطلع خريف باهت ينحدر الضباب على خديه ، جمعنا جلسة هادئة مع أصدقاء لنا من أبناء جنيف منهم : الباحث ، والأديب ، والفنان الموسيقى والمسرحى ، وكان الحديث عن جان جاك روسو (١٧١٢ - ١٧٧٨) بمناسبة احتفال ثقافى قريب العهد أقامته تكريماً له مدينة جنيف ، باعتباره من مواطنيها ، فى ذكرى مرور قرنين ونصف على مولده ، وكنت قد ساهمت فى هذا الحفل ببحث متواضع عن "جان جاك روسو والشرق" نشر فى حينه بـ "الترييون دى جنيف - أغسطس ١٩٦٢" .

وبدأ حديثنا عن هذه الشجرة التى كثيراً ما تظلل جان جاك روسو بظلالها وهو سابع فى تأملاته فى الأفق الممتد أمامه عبر هذه اللوحة الفريدة التى خطها الخالق الأعظم لطبيعة الكون ، ومن حوله البحيرة تنساب فى براعة وصفاء تحتضنها مدينة جنيف الخجولة وكأنها متدثرة بالخضرة ، وبالجبلين الشامخين من حولها تحتمى بهما "الجورا" و "مون بلان" . الأول رزين فى صمته أصيل فى سمته ، والثانى سعيد بثلوجه فخور بقامته .

ومن الشجرة تركز الحديث حول جان جاك روسو اليتيم التائه ، والموسيقى الفنان ، والمربى الصريح ، والفيلسوف المبدع المحب للطبيعة المدافع عن "قطرية طيبة الإنسان" والداعى إلى تحرره من الظلم

والطغيان . جان جاك المفكر الذى هبت رياح دعوته فى كل مكان . وعبرت سحب العصور التالية له موزقة متمرة ، إن كانت نسمات إحساسية عن الحرية تسربت إلى الشرق رغم دخان انفعاله ، مترددة وجلة وخائفة ، تستطلع الطريق من "الرسائل الفارسية" لمنتسكيه (١٧٥٥ - ١٧٨٩) فانعكاسات عطائه روت بفيضها الغرب ، وساهمت فى تفجير طاقات مفكره الإنسانيين ، حتى وصلت إلى مشارف اسكندنافيا .

وهكذا تشعب بنا الحديث ليصل إلى "أوجست سترندبرج" المفكر السويدي والناقد الاجتماعى الكبير (١٨٤٩ - ١٩١٢) وكانت معلوماتى عنه شخصياً محدودة آنذاك ، كان تعاملى معه فكرياً فى إطار محدد خاص بأبحاثى عن أثر المدرسة السانسييمونية الإنسانية الفرنسية فى اسكندنافيا . وفى أعقاب هذه الجلسة شدنى الشوق للتعامل مع "سترندبرج" فى شكل أوسع وأعمق . إذ أن تعاطفنا مع المشروع الفكرى قبل ولادته يلعب دوراً أساسياً فى إنجازنا له ، وقد كان ، فوضعت بحثاً عن "أثر جان جاك روسو على سترندبرج" وآخر عن "تصوره لمفهوم الوحدة الأوربية" ثم دراسة اجتماعية عن مؤلفيه "ابن الخادمة" و"الغرفة الحمراء" وكيف حلل مجتمعه ، ونقد بنية الأسرة الاسكندنافية . وتوقفت رفقتى له عند هذا الحد فى الستينات ، وها أنا اليوم أعود إليه من خلال هذا الحوار أيضاً لأقدم فكرة موجزة عنه بهدف التعريف به كمفكر وإنسان وبخاصة نهايته كعملاق فى حضارة الغرب .

ولد "أوجست سترندبرج" سنة ١٨٤٩ فى عائلة كثيرة الأطفال (١٣ طفلاً) ، وكان والده برجوازياً سويدياً متوسط الحال يعمل فى التجارة ، أما والدته فهى من عائلة فقيرة وكانت تعمل خادمة ، وماتت وعمره لم يتجاوز الثلاثة عشر عاماً ، وتزوج والده بعد ذلك مرة ثانية ، ولقد تابع "سترندبرج" تعليمه ، والتحق بمدينة "ابسلا" لدراسة الطب ، ولكن سريعاً ما عاد إلى استكهولم حيث عمل معلماً كى يعيش ، وفى سنة ١٨٦٩

اكتشف قدرته ككاتب في محاولات : ، ولكنه عاد من جديد لدراسة الطب في "إيسلا" سنة ١٨٧٠ ومع هذا لم يوفق في الحصول على درجة جامعية ، فاستقر به المقام سنة ١٨٧٢ في استكهولم ليعمل صحفياً في هذه المرة ، وممثلاً ، وناقداً مسرحياً ، وكان صعب المزاج كثير الشجار مع رؤسائه ، وفي سنة ١٨٧٤ عين مساعداً في الحزينة الملكية ، وبقي فيها حتى سنة ١٨٨٢ . وخلال فترة عمله هذه ، ارتبط بعلاقة عاطفية مع البارونة "فون ايسن" (١٨٥٠ - ١٩١٢) فطلقت زوجها من أجله ، وأصبحت ممثلة مسرحية وتزوجته في سنة ١٨٧٧ ، ولقد كانت سنواته الأولى معها سعيدة وأنجب منها بنتين : "كارين" و"جرتا" .

وبدأت شهرته في الانتشار ككاتب بفضل تراجميته "السيد أولوف" وخصوصاً "الغرفة الحمراء" سنة ١٨٧٩ ؛ ولكنه عقب النقد اللاذع الذي وجه إليه ولإنتاجه ، سافر بصحبة زوجته سنة ١٨٨٣ إلى فرنسا ، ثم إلى سويسرا ، وهناك ولد ابنة "هانس" . وحينما كتب مسرحيته "المتزوجون" حوكم ، فقفل حزينا راجعا إلى الشمال وأقام بالدانمارك وعرف ظروفاً مالية صعبة وقاسية سنة ١٨٨٧ جعلته يقرر الرجوع إلى مسقط رأسه السويد سنة ١٨٨٩ وهو في حالة انهيار عصبي قريب من الجنون . ومع هذا وضع مسرحية "الأب" سنة ١٨٨٧ ، "والرفاق" سنة ١٨٨٨ و"الآنسة جولي" سنة ١٨٨٨ "والحلم" سنة ١٩٠٢ ، وانتهى به المطاف إلى طلاق زوجته سنة ١٨٩١ ، فشد رحاله من جديد متجهاً إلى برلين سنة ١٨٩٢ بعد أن هدأت حالته نسبياً .

وهناك كان ينتظره لقاء عاطفي جديد فقد تعرف على الصحافية النمساوية الشابة "فريدا أوهيل" (١٨٧٢ - ١٩٤٣) وهي في عمر الزهور ، إذ لم تكن تتجاوز الحادية والعشرين من عمرها ، وتزوج بها عام ١٨٩٣ ثم سافرا معاً إلى إنجلترا ، ومنها عرجا إلى ألمانيا ، وأنجب منها طفلة ، ثم كانت العودة إلى باريس سنة ١٨٩٤ حيث كان البؤس وكان الشقاء ، وأخيراً الجنون في انتظاره .

وأثناء أزمته الباريمية وقى نفس السنة وهو فى قمة معاناته المرضية العصبية ، كتب رائعته المجيم "انفيرنوا" وبالفرنسية . وكان الرحيل من جديد إلى السويد عن طريق النعسا التى لم يتم فيها طويلا ، وبقي فى السويد بمدينة "لند" سنة ١٨٩٩ ، وفى هذه الفترة (١٨٩٩ - ١٩٠٤) كتب تحفته الاستشراقية "الطريق إلى دمشق" فى ثلاثة أجزاء .

ومع اقتراب عمره من الخمسين بدأت طلائع حياة الدعة ، وشائر الرفاهية تظهر فى أفق وجوده الذى لم يعرف إلا المعاناة . وكان حبه الثالث مجسداً فى الممثلة النرويجية "هاريت بوس" تزوج بها فى مايو سنة ١٩٠١ وأنجب منها طفلة "آن مري" وكأنه كان فى كل زواج خريصاً على تخليده بأثر . وكما كان الوضع فى الزيجات السابقة انتهى هذا الزواج أيضاً بالطلاق بعد عام .

وبدأ فى كتابة "الراية السوداء" على إثر تكثف النقد الموجه إليه وفيها يسخر من نقاده . ثم أسس "المسرح الباطنى" الذى كان توطأ إلى تأسيسه منذ أمد بعيد ، واستمر فى إنتاجه الذى بلغ السبعين بين مؤلف ، ومسرحية ، وقصة ، وسيرة ذاتية ، أبرز لنا من خلاله حياة المجتمع السويدى ، ومعطياته بإيجابياته وسلبياته .

إن إنتاج "سترن-برج" خير شاهد على نزاهته الفكرية وصراحته مع ذاته أولاً قبل أن يكون صريحاً مع الآخرين ، ففى "ابن الخادمة" صور لنا حياته دون زيف أو تصنع ، مؤكداً فى مؤلفه "الكاتب" حيث يبرز لنا واقعه النفسى ودفاعه عن هذا الواقع رغم معاناته منه ، أما المرأة فقد شغلت مكاناً مرموقاً ليس فقط فى حياته كرجل ، ولكن فى إنتاجه الفكرى كإنسان ، مرة يرتقى بها عبر أبراج حافلة بالانفتاح والتحرر ، وأخرى فى مؤلفه "المتزوجون" لا يرى فيها إلا مجرد زوجة ، وأم ، وربة منزل ، فيتحفظ على تحررها ، ولكن سريعا ما يعود إلى الدفاع عن هذا التحرر خصوصاً فى مؤلفه "طوباوية الراقع" . أما قصصه فهى عادة

قصيرة ، ويغلب عليها الجانب الإبداعي ، ونقد المجتمع السويدي تصدر كموضوع رئيسي في إنتاجه .

ولم تشغله مؤلفاته المسرحية والقصصية عن مزاولة كتابة التاريخ ، فأرخ الحياة ملوك السويد وبطولاتهم وتضحياتهم ، ويعتبر مؤلفه "غوامض التاريخ العالمي" من المؤلفات الجديرة بالإشارة في هذا المضمار حيث حاول أن ينتفع بمعلوماته في العلوم التجريبية ودراسته السابقة للطب ، كما يلاحظ بصفة عامة تأثر "سترندهرج" بالعديد من مفكرى الغرب وبعدارسهم .

تأثر بصفة خاصة بـ"نيتشه" (١٨٤٤ - ١٩٠٠) الذى عرف بدوره واقع المعاناة وحاول تجاوزها بإرادة قوة الإنسان ولكن قادتة في النهاية إلى الجنون ، في نفس الفترة التي عانى فيها مفكرنا "سترندهرج" من الجحيم الذى جسده كما أشرنا في رائعته "انفيرنوا" وكأن نهاية قرن وبداية قرن تنعكس في عقول العمالقة غرباً وشرقاً ، منها ما اهتز ومنها ما صمد ... واستمر موكب الحياة متداولاً بآيامه بين الناس ، وأما الفكر الاسكندنافي فتأثر فيه بـ"بروجورش" ، و"جوناس لى" و"نيلسون" السابق الذكر ، ومن الفكر الفرنسي كان تأثير جان جاك روسو ، وقد أفردت له دراسة سابقة في الستينات ، وكذا تأثره بالمدرسة السانسيمونية وحددت أبعاد هذا التأثير "في المجلد الأول من نظريتي عن "أصول السوسيولوجيا ، والاشتراكية ، والدولية " - بالفرنسية صفحة ١٧٨ وما يليها " . هذا إلى جانب تأثير فورييه ، وهوجو ، وزولا ، وكابيه ... ولقد ساعده الفكر الفرنسي الإنساني على طرح إشكاليات مجتمعه ومؤسساته تحت شعار التكامل بين الدولة والمجتمع في ظل السلام ، وإسعاد الإنسانية ليس على المستوى الأوربي فحسب وإنما على مستوى البشرية جمعاء . نرى في تطلعاته مزيجاً من الأفكار الأفلاطونية والسانسيمونية ، خصوصاً في "طوباوية الواقع" هذه التطلعات دفعت

الكثير من الاشتراكيين السويديين إلى تبنيه لا كمصلح فحسب وإنما كرائد أصيل .

ومع تأسيسه "لمسرحه الباطنى" وتقديم مسرحيات من سنة ١٩٠٧ تعالج النفاق والغش ، والخداع ، والتضليل ، والزيف ، والخوف ، والظنون ، حقق "سترنديرج" هدفاً من أعز أهدافه وهو الغوص فى خفايا الباطن ، وأهم هذه المسرحيات "العاصفة" و"القفاز الأسود" ، كما أبرزت لنا مسرحياته الحياة الداخلية للأسرة وخصائص بنيتها ، فطرح عوامل انفصام الأسرة فى المجتمعات المعاصرة ، وبعمق وتجربة ، وأبرز اتجاهاتها إلى الانحلال والتحرر الجنسى . هذه الأسرة التى نجدها مثلاً فى تحفته "رقصة الموت" سنة ١٩٠١ ، تجسدها "الأشباح" لتصور ارتباط الزوجة بزوجها لا عن طريق الحب وإنما عبر حقد دفين متبادل وكراهية مضمرة مشتركة ، وفى النهاية الموت وحده هو الذى يتكفل بحل هذا الرباط ، (بعض هذه المسرحيات ترجم إلى العربية وشخص) .

هذا ولم يقف تأثير "سترنديرج" عند الفكر الغربى بل تأثر أيضاً بالشرق وحضاراته فى بعض مسرحياته ، فنجد فى مسرحية "الظن" أصداءً للبوذية حينما صور الحياة كسراب ، وأكد واقع الألم على أنه هو وحده القادر حين تقبله على تحرير الإنسان من الخوف ، وفى "الطريق إلى دمشق" وقد كتب الجزء الاول والثانى سنة ١٨٩٨ أما الثالث والأخير فى سنة ١٩٠٤ ، حاول مفكرنا تحت تأثير أرض النبوات ومهد الروحانيات أن يتخلى عن الصيغة التقليدية للدراما ليلقى بجسر ممتد من الطبيعى إلى الماورائى مستغلاً الرموز فى شروحه ، ويجسد المسرحية بطل واحد "المجهول" - وقد يكون هو سترنديرج فى حد ذاته - يرتقى به فى تصعيد الدراما مازجاً الزمان بالمكان والحلم بالحقيقة ، والبطل المجهول يسير ويسير فى طريقه إلى رحلة داخلية فى أعماقه ، يغوص بمعالمها فى بطون الخفايا ، تحت ستار الغموض . كذلك يبرز لنا تأثير حضارتنا

العربية الإسلامية في مسرحيته "حذاء أبي القاسم" حيث استعار هذه الشخصية المعروفة في أدبنا العباسي بما جر عليها حذاؤها ، يشخص من خلالها واقع مسرحيته هذه ، ولعل دراسات متخصصة في المستقبل ، عن مدى تأثير حضارتنا في الفكر الاسكندنافي تلقى الكثير من الأضواء على إشعاع هذه الحضارة العريقة في شمال أوروبا.

"أوجست سترندبرج" أبسط ما يقال عنه أنه كان مواجهاً لنفسه صادقاً معها قبل أن يواجه بها مجتمعه . لقد عايش معاناة ذاته في أغوارها ، وعرك ضروب الواقع ومنعكساته عاطفياً وأخلاقياً واجتماعياً بصفة عامة ، ويبحث عن الحلول مرة من خلال المواجهة ، وأخرى عن طريق التكيف ، وثالثة عبر الغموض والتغميض . وفي كل مرة يخرج لنا بتجربة حية يجسدها في رائعة من روائعه المسرحية أو القصصية والسيرية ، لقد عانى مفكرنا أيضاً من نقاد عصره وقسوتهم عليه ، لأنه في تعريته للواقع هو في الحقيقة قام بتعرية الجميع ، ودمر حاجز الصمت بقوة المكاشفة الصريحة الواعية ، وما مسرحه الباطني إلا محاكمة جزئية للخلفيات المكننة في مجتمعه ، وفي دخائل أسره ، لقد حاول بعض نقاده إسكاته عن طريق المغالاة في تجريحه أمام معاصريه ، ولكن المعاصرة حجاب نسبي ، آل في النهاية إلى عكس ما ارتجى من ورائه . فبقدر المغالاة في إسكاته كانت قوة تفجير طاقاته ومنطلق شهرته ، وهكذا ذهب ناقدوه بنقدهم ، وبقي "سترندبرج" الذي خلد بنو وطنه ذكراه بتأسيس "جمعية" لحفظ تراثه "باستكهولم" تضم كبار الأكاديميين السويديين إلى جانب مفكرين أجانب كانوا قد تعرضوا له بالبحث والدراسة . وقد لاحظت بعد اختياري عضواً فيها كم أصبح هذا المفكر عزيزاً على قومه ، وعزيزاً علينا أيضاً بتخليده لانعكاسات فكرنا الحضاري العربي عند أبناء الشمال ، فقد كان رسول معرفة لنا بين أهله ، من خلال "الطريق إلى دمشق" و"حذاء أبي القاسم" بل في النهاية أصبح من خلال مسرحه العالمي عزيزاً ومقدراً في كل مكان كما هو الحال دائماً بالنسبة لعظماء

الرجال . وعائلة الحضارات ، لقد انتهى "سترنديج" بعد أن صار سلبية الإنسان من الداخل سحرياً لغموذه وكاشفاً لمراته المظلمة وأنفاقه المجهولة ، ولقد كلفه هذا كما رأينا سر المعاناة بمختلف دروبها وقنواتها ما جعله يساكن الجحيم ويتعايش مع نيرانه .

أراد أن ينفذ إلى أعماق النفس البشرية ليترجم لنا جانباً من خفاياها ملتقياً في ذلك مع عملاق آخر "سيجموند فرويد" وإن تنوعت بينهما الطرق وتباينت وسائل الاقتراب ، ولكن جمعتهما الغوص في أغوار الإنسان حتى القاع ، وكلاهما انعكست عليه آثار مجازفته الرهيبة حينما أراد أن يمارس العوم في بطون هذا الكائن المتميز العجيب فعانا بقدر معاناته نوعية الشقاء وتمرده الفريد حتى على ذاته.

فرويد إذن هذا العملاق الذي يلتقي في همومه مع "سترنديج" كما يلتقي مع من سبقه في عرضنا من أمثال نيتشه ومن أوردناهم قبله كنماذج لنهاية عمالقة في حضارة الغرب سوف نقرر له الفصل التالي من حوارنا .

* * *

الفصل العاشر

فرويد ونهاية عملاق

"سيجموند فرويد" غنى عن التعريف ، فقد شق في الفكر الإنساني المعاصر تياراً متميزاً تمحور حول "التحليل النفسي" للكشف عن أغوار الإنسان والغوص في خبايا اللاشعور . دون شك هو مؤسس التحليل النفسي أو العميد المتميز له ، بل وعلى لسانه يؤكد أن الإنسانية جرحت في نرجسيتها مرات ثلاث ، وكل جرح أضعف من ضلال ووهم الإنسان ... الأول والثاني قام بهما "كوبرنيك" (Copernic) والثاني "داروين" (Darwin) ، والثالث هو "فرويد" بالتحليل النفسي.

فرويد لا يمكن عزل حياته عن نتاجه فقد انعكست حياته على إنتاجه كما انعكس هذا الانتاج بدوره على فترة تجاوزت النصف قرن وما زالت نظرية بضمجيجها وضوضائها مع أو ضد فرويد ، فمن هو فرويد تتصار ؟

سيجموند فرويد ولد في ٦ مايو ١٨٥٦ من الزوجة الثالثة لأبيه نت تصغره بعشرين عاماً ، وكان والده تاجر طواف ليس بالغنى ولا فقير يهودى ... هذه اليهودية التي أثرت في الطفل فرويد وقبعت منه في لا شعوره . فهو الذي يذكر لنا وما زال طفلاً أنه أثناء تنزهه مع والده في يوم من أيام العطلة . وكان والده يرتدى لباساً يتناسب مع وم العطلة وقبعة أنيقة ويتمشى مختلاً وبجانبه طفله ، وإذا بجرمانىلقى بقبعة أبيه على الأرض .

فما كان من والده إلا أن تناول ويهدوء القبعة من الأرض ثم أعادها فوق رأسه وهو يقول لطفله : "هلم ، لنضع لهم الطريق" ، وقد كان هذا هو رد الفعل الوحيد الذي استقر في لا شعوره كطفل ، وظل يلاحقه كبتياً - باعترافه في سيرته - طوال حياته كدلالة متميزة على تحقير اليهودى ،

وإذلاله ، وهن نتساءل هل هذا بدوره يمكن أن يحسب من بين المحيثيات التى أهلت فرويد وغذته لمزاولة التحليل النفسى فيما بعد لمجتمعات بورجوازية عنصرية أراد أن يكتشفها من الأعماق ؟

أما فرويد التلميذ فلم يكن متفوقاً فى العلوم التجريبية والرياضيات ، بل كان يعانى من الضعف فيها بينما كان قوياً فى اللغات والآداب ... انجذب إلى داروين وقد تأثر به ليتخذ من الطب دراسة جامعية وقد تأثر أيضاً بـ "بورن" (Bôrne) وفى دراسته الطبية انجذب إلى الطب النفسى بفضل الأستاذ "تيودور مانير" (Th. Maynert) ، كما تأثر بغيرهم نخص كمثال "جون ستوارت ميل" الذى تأثر بأفكاره حول تحرير المرأة .

وتخرج من الطب عام ١٨٨١ وإن كان قد وجد صعوبة فى الطب العام فتجاوز الامتحان بدرجة مقبول ، ورسب فى الطب الشرعى ولا يمكن هنا أن ينكر دور الأستاذ "بريك" (Brucke) فى احتضانه لفرويد ، فهو الذى أسند إليه العمل كمساعد فى الجامعة للأعصاب ، وحصل على منحة لباريس ليتدرب تحت إشراف "شاركو" (Charcot) وليتخصص فى الهستيريا والتنويم الاصطناعى "الابنوتيزم" ، ولقد كانت انطباعات الشاب فرويد عن باريس سلبية فقد بدت له تصرفات أهل باريس غريبة ولم تعجبه الباريسيات ، وقد تمت قبل ذلك خطوبته مع "مارتا برنايس" التى تزوج بها سنة ١٨٨٦ بعد سنوات من الخطوبة كما أنه تتلمذ فى تدريباته إلى جانب "شاركو" على "برنهايم بنانسى" كما تتلمذ على "برويير" وتذكر عادة حالة "أنا" (Anna) من الحالات التى اهتم بها فى هذه الفترة ، فى إطار معالجته لمرضاه .

وبرزت عند فرويد رؤية الهستيريا واضطراباتنا على أساس جنسى ، وبشكل لا شعورى ، ومارس الطب ابتداءً من ١٨٩٥ ، ونشر مع "برويير" دراسته عن الهستيريا . وحرر لصديقه "فيلياس" محاولة عن "علم النفس" ، وتوفى فى هذه الفترة والده ١٨٩٦ ، وكان حينما يقوم

بدراسة مرضاه من خلال التعامل مع اللاشعور والاستعادة ، أن يقوم بدراسة ذاته هو أيضاً ، ونتيجة لذلك نشر في سنة ١٩٠٠ "علم الأحلام" بمساهمة "فيلياس" ، ومن (١٨٩٧ - ١٩٠٠) وضع دراسات منها السيكولوجية المرضية للحياة اليومية نشرت سنة ١٩٠١ ، وكلمة الروح وعلاقتها باللاشعور نشرت سنة ١٩٠٥ ، إلى جانب محاولات ثلاث عن نظرية الجنس ، كما أنه قام بترجمة لأعمال أستاذه "شاركو" من الفرنسية إلى الألمانية ، ومن بين من تأثر بهم أيضاً نذكر "نيتشه" ، و"شوينهور" و"تاين" وغيرهم .. ومن الدراسات التجريبية له في هذه الفترة نذكر حالة "دورا" (Dora) هذه الحالة التي أكدت حضور فرويد النظري والتجربي في التحليل النفسي خصوصاً فيما يعنى الأحلام ، فالحلم كما يراه آنذاك يسعى في الواقع لتحقيق رغبة مقهورة كذلك دراسته لحالة "إرنا" . وفي الهستيريا يرى فرويد أن هناك رغبتان متناقضتان .

ونتابع مسيرة فرويد بعد تخرجه مع مدرسة نانسي وعلاج الهستيريا وتوظيفه للتشويم الاصطناعي لنرى أنه - وعلى حد اعترافاته الصريحة التي نلاحظ حضورها بإجماع المهتمين بسيرته وعلى رأسهم "أرنيس" جونيس" صاحب كتاب "حياة وأعمال سيجموند فرويد" في ثلاث مجلدات (١٩٥٣ - ١٩٥٨) ، وكذلك دراسة "آسون" ، وحتى في البحث المختصر والذي ظهر حديثاً له "جكار" عن فرويد ١٩٨٣ ، الكل يجمع على أن سيجموند فرويد كان يتعاطى الكوكايين وإن كان بكميات صغيرة لمحاربة الخجل واكتساب الشجاعة والثقة ، نظراً لأنه قد ثبت أن الجنود كانوا يتعاطونه في الحروب للتحلي بالإقدام والشجاعة ، ولم يكتف فرويد بتعاطيه للكوكايين ، بل كثيراً ما كان ينصح به مرضاه ، خصوصاً وأن الكوكايين آنذاك لم يكن ممنوعاً .

ذهب في حماسه له إلى حد وضع دراسة في سنة ١٨٨٤ عنه تحمل عنوان (Dela Coca) عن الكوكايين واصفاً له بأنه دواء له مفعول

سحري في العلاج وبدأ بوصفه لأحد مرضاه الذي كان يعاني من إدمان المورفين وهو "أرنيسست فون فليستشل" (Er.Fon Fleischl) فأعطى له الكوكايين كبديل يتخلص بفضل من الإدمان على المورفين .

ولكن الذي حدث أن مريضه تحول أيضاً إلى مدمن على الكوكايين فأضاف إلى إدمانه السابق إدماناً آخر وهو إدمان الكوكايين ، وهجوم بهذه المناسبة إعتباراً أنه أضاف إلى إدمان الخمر ، وإدمان المورفين ، إدماناً ثالثاً وهو الكوكايين ثالث الإدمان الثلاثي للإنسانية ، ولكن فرويد أجاب على من اتهموه وهاجموه عام ١٨٨٧ أن الكوكايين في حد ذاته ليس موضع إدمان وإنما المدمن هو شخص ضعيف الإرادة مؤهل للتأثير بالتعود والاعتیاد ، وبالتالي الإدمان . ولقد ميز بين "الكوكاينوفوبيا" و"الكوكاينومانيا" . ولقد كان لهذا تأثيراً على مسيرة "فرويد" واختياراته ، ومن هنا أقلع إلى العلاج بالتحليل النفسي إيماناً أن لكل دواء مضار جانبية بل يذهب "بيرن فيلد" أن هذا هو الذي دفع به "فرويد" إلى التحليل النفسي كبديل للعلاج الكيميائي ، ويلاحظ أن "بروير" يعتبر من أوائل من طبقوا التحليل النفسي ابتداء من سنة ١٨٨٠ ، هذا التحليل النفسي الذي ارتبط بعد ذلك أو تمحور حول "فرويد" إنطلاقاً من دراسته حول الهستيريا وارتباطها بالعلاقات الجنسية كما نشر سنة ١٩٠٨ "المعنويات الجنسية للعالم المتحضر والعصاب في الأزمنة الحديثة" ، ويلاحظ أن فرويد تحفظ على الحرية الجنسية خصوصاً في أمريكا وإن كان يعتقد أنه لم يستغلها ، ولم يتمتع بها شخصياً في حياته ، ولو وقفنا قليلاً مع حياته الحميمية هذه سنكتشف أن "فرويد" كان - وهذا شيء غريب - رغم أصالته العلمية متطيراً ويتشامم من يوم ١٧ في الشهر بل سيطرت عليه بعض الأفكار التشاؤمية والتطيرية خصوصاً فكرة أنه سيموت في عمر ٦٢ سنة ، وبالتحديد سنة ١٩١٨ ، وحينما عبر هذا العالم دون أن يموت قال لصديقه "فرانكزي" إنه لم يعد يشق في الخوارق ولا يؤمن بها . كما يلاحظ أيضاً بالنسبة لحياته الحميمية أنه

أطال فترة خطوبته ، بل كانت أم خطيبته تنظر إليه بسخرية وأنه غير مؤهل لبناء أسرة . ولقد وافقت عليه بصعوبة باعتباره فتى بلا مستقبل ، بل وليس له نفس الدين . ولقد اتهمها "فرويد" بالسيطرة بل كثيراً ما كان يداعب زوجته حتى وفاته حينما يجدها لا تقرأ في النهار ويطلب منها لماذا ؟ لتجيبه : هكذا قالت لى والدتى النهار للعمل ، ومن طرائف "فرويد" عبر حياته الحميمية أنه فكر أن يعمل جارسوناً فى مقهى يقدم للزبائن المشروبات وما يطيب لهم . وهذه الفكرة دأبت أيضاً "بروير" ، ومن سمات شخصيته أنه كان غيوراً على خطيبته بل كثيراً ما كان يمنعها من أن تخاطب ابن عم لها كان تربطه بها صداقة ، وهو الفنان الموسيقار "ماكس ماير" أن تذكره حينما يتحدث باسمه وأن تقول له "السيد" ، كما كانت تلاحقه الغيرة من صديق لابن عمها أيضاً وهو "فاهل" لأنه كان جذاباً وكان متعلقاً بخطيبته "فرويد" وحينما علم بخطوبتها تأثر إلى حد البكاء . واستكمالاً للصورة الحميمية لحياة فرويد يمكننا أن نقول إن فرويد كان ملتزماً بيهوديته فى زواجه ، ولقد ألحبت له زوجته ستة أطفال وكانت بحق سيدة دار وهو زوج محافظ بورجوازي بما فى معنى الكلمة من ثقل ، ويذكر فى إطار سيرته أن علاقته الجنسية بزوجته توقفت فى سن الأربعين وهى كانت سريعة الحمل ، إلا أنه يلاحظ ما دفع فرويد من التوقف عن العلاقة الجنسية ما نلاحظه من تركيزه على أهمية الطاقة الحيوية وأن الممارسة الجنسية الكثيرة تستنزفها ، بل ربط بين بعض العوارض المرضية النفسية وبين المغالاة الجنسية ، ويخص هنا دراسته عن المعنويات الجنسية للعالم المتحضر والعصاب فى الأزمنة الحديثة ، وقد تعرض أيضاً للحرية الجنسية فى أمريكا ، غير أنه كان يتحفظ باعتباره أنه شخصياً لم يمارس هذه الحرية فى حياته ، بل أعطى أهمية فى هذه الحياة إلى جانب أسرته وزوجته لعلاقته المهنية والعلمية كعلاقته بـ "فليس" الطبيب البرلينى ، كما أنه أسس "جمعية التحليل النفسى" بقيينا سنة ١٩٠٢ ، وكان يلقي المحاضرات التى لم تلق إقبالا وتشجيعاً ، وكان يعقد حلقات كل يوم

أربعة تجمعهم مع رفاق أمثال "ستيكل" و"ريتزل" و"كهان" . و"فرنكزي" و"أدليز" ، وكان لهذه الحلقات سكرتير في إطار جمعية التحليل النفسي . وهو في الأساس كان طالباً فقيراً ، ونعني به (Auto-Rank) الذي أصبح فيما بعد غنياً عن كل تعريف . وبلغ أعضاء هذه الحلقات سنة ١٩٠٨ : ٢٢ عضواً ، ويرى "فروم" أن "فرويد" كان يسعى من وراء تأسيسه لهذه الجمعية أن يصبح رائداً لحركة ، قد لا تكون بالضرورة سياسية وإنما تحت ستار التحليل النفسي أو يريد أن يلعب دور موسى التحليل النفسي ، وليس موسى التوراه . وفي سنة ١٩٠٦ بدأ "فرويد" يرسل "كارل جوستاف يونج" ، وكانت اهتماماته منصبية على الهيستيريا والأحلام والجنس . وتعتبر دراسته عن تفسير الأحلام من الدراسات الجادة ، وإن كانت قد ووجهت بالنقد حين ظهورها . وكان "يوني" يصغره بحوالي عشرين عاماً . ويزاول العمل في مستشفى بـ "زيورخ" كان يديرها "بلولير" .

ولقد زار (Young) "فرويد" الذي كان يكرر له : "إذا كانت أنا موسى فأنت المسيح لاستعادة أرض الميعاد . ونعني بها "التحليل النفسي" ، عرفت علاقتهما التعاطف كما عرفت الخصام ، ويلاحظ أن ردود أفعال "يوني" في بعض الأحيان كانت عنيفة إلى حد أنه خاطب "فرويد" متحفظاً على معاملته لأتباعه بأنه يعاملهم كما تعامل العبيد . إلى جانب صفات أخرى سلبية نعت "يوني" بها "فرويد" . ولقد استقال من جمعية "فرويد" عام ١٩١٤ بعد أن أسست في ١٩٠٧ بـ "زيورخ" . بعد أن أسس في سنة ١٨٠٧ جمعية في زيورخ باسم "فرويد" . وكان "فرويد" يعتز بها لأن "يوني" هو في الواقع لم تأت منه العراء وإنما والده كان راعياً للكنيسة . وفي سنة ١٩١٠ تأسست الجمعية الدولية للتحليل النفسي ، وياتساعها كانت الانشاقات التي لم يكن "يوني" إلا حالة من بين حالاتها ، فقد انشق قبله "شتيكل" كما انشق "أدلر" . وبعد ذلك تبعهم "رانك" ثم كان انشقاق أقرب المريدين ، ونعني به "ساندور

فرانكزى" . ومع هذا لم تنقطع الصلات نهائياً ، أو على الأقل فيما يعنى "يونج" الذى ربط الصلة بـ "فرويد" فى سنة ١٩٢٤ بخصوص مريض كان يعالجه "فرويد" ، وفشل فى علاجه وكان ديبلوماسياً يهودياً ، وكان أيضاً يعالجه "يونج" . ويلاحظ فيما يعنى "فرويد" أنه كانت له مواقف ربما لعبت دوراً فى انفضاض أتباعه من حوله واحداً تلو الآخر . على سبيل المثال لا المحصر موقفه من الجنس ومن الدين ، ونظرته للحرية الكاملة والتربية ، الوجدان ، التضاد بين الشعور واللاشعور ، غريزة الحياة وغريزة الموت . بل حسب "أرنس جونس" أن "فرويد" كثيراً ما كانت تشم من خلال مواقفه انعكاساته الذاتية ، بل يرى "جونس" أن "فرويد" كان نسوى ورجولى فى نفس الوقت ، كما أنه تأثر بالحرب العالمية الأولى وأثرت على فكره . بل يعزى إدخال النرجسية فى التحليل النفسى ومفهوم الكراهية كغريزة ، وأن التدمير لا يدخل فى الليبيدو الجنسى ، وإنما يراه كغريزة فيما وراء مبدأ اللذة . كذلك تشم رائحة مناقشاته مع "آينشتاين" بخصوص الحرب ، وغريزة التدمير أو غريزة العدوان كما حددها "آدلر" ، ويرى أنه حين وضعه لدراسته عما وراء مبدأ اللذة (١٩١٩ - ١٩٢٠) تأثر بملاحظاته لابن ابنته الصغير فى هامبور وعيشه بلعبه ، وإلقائه بالأشياء ، وكيف أن هذا العدوان تحول إلى لذة ، والتلذذ بالشئ المدمر ، وعودة الكائن إلى حالة ما قبل التكوين كما قال "سانت بوف" . فالطبيعة هى التراب والرماد ، وجرانيت القبر ، وما الحياة إلا حدث عابر . الطبيعة قبل وبعد الممات . الحياة كما يرى "بيشى" هى مجموعة القوى المقاومة للموت . بل يلاحظ أن الموت شغل حيزاً عريضاً من تفكير "فرويد" ، بل تسلط عليه ، إذ كان دائماً حين وداعه لـ "أرنس جونس" يقول له : "ربما لا نلتقى بعد ذلك" . وهكذا التناحوس أو غريزة الموت كانت تعايش "فرويد" ، بل حينما أغمى عليه سنة ١٩١٢ واستيقظ كانت أول كلماته عن الموت ، بل كثيراً ما يتأثر حين سماعه لموت أحد أصدقائه ، ومن باب أولى أعزائه ك وفاة ابنته "صوفيا" ، وابن ابنته سنة ١٩٢٣ ، وكان عمره

أربعة أعوام ، وفى نفس العام أجريت له عملية السرطان فى ذقنه كمنطلق لعمليات جراحية أخرى توالى وتجاوزت الثلاثة والثلاثين إذ لازمه هذا السرطان الخبيث ستة عشر عاماً بآلامه الرهيبة . ومع هذا لم يتوقف النشاط الفكرى والعلمى لهذا العملاق المتعاش مع آلامه ، فضلاً عن معاناته النفسية التى انطلقت به منذ بداية القرن "سايكو نيفروز" . وتساكن مع هذه المعاناة النفسية ما يقرب من ثلاثة وثلاثين عاماً . وثلاثون عملية جراحية ، وثلاثة وثلاثون عاماً من المعاناة النفسية . ومع هذا لم يستسلم "فرويد" ، وإنما حاول أن يستفيد ، بل ويوظف هذه المعاناة لفهم وتفهم الآخرين ، فيما يعنى الليبيدو عبر مراحل الثلاث : الجنسية ، والرجسية ، والثالثة حيث الموت ينتصر على الحياة . ويرى "فرويد" أن الاكتشافات الكبرى للإنسانية لها معالم ثلاث ، كل معلمة تعنى القهر لرجسية من رجسيات الإنسانية : المعلمة الأولى لمعلمة "كوبرنيك" حينما قضى على نرجسية تركز الأرض وأنها ليست مركز الكون ، وإنما دائرة وتدور ، و"داروين" صاحب المعلمة الثانية حينما قضى على نرجسية الإنسان باعتباره سيد الكائنات ، وزعم أن ما هو إلا حلقة من حلقات التطور ، وجاء "فرويد" ليظهر النرجسية الممثلة فى المعلمة الثالثة بفضل التحليل النفسى ، وأن نرجسية الشعور ليست بسيدة نفسها ، فهناك عمليات اللاشعور ، وبالتالى حسب "فرويد" هذه المعلمات الثلاثة لقهر النرجسيات ، نرجسية الأرض ، ونرجسية الإنسان سيد الكائنات ، وأخيراً نرجسية الإنسان سيد نفسه . هى فى الواقع الاكتشافات الكبرى للإنسانية كما يراها "فرويد" .

واستمرت حياة "فرويد" وإن كانت قد عرفت مع صعود النازية فى ألمانيا مستجدات كان لها أثر فيما تبقى من حياة "فرويد" ، بمعنى السنوات الأخيرة ، وهى سنوات المعاناة . إذ من المعروف أن النازية اتخذت مواقف من اليهود من بين ما ترجمت فى هذه المواقف حصرهم وحصارهم ليس فقط جسدياً وإنما فكرياً فبدأت تحرق مؤلفات اليهود ،

وجاء دور "فرويد" لتحرق مؤلفاته ، وكانت الحثثيات التى أعطيت لهذه المحرقة أن هذه المؤلفات تحرق لما تقدمه من "لا مبالاة مدمرة للروح وللحياة الجنسية ، وبالتالي باسم التسامى والنبيل الإنسانى تحرق كتب "سيجموند فرويد" . وحينما توصل بهذا القرار من المسؤولين أجاب "فرويد" متسائلاً : "ياله من تقدم هذا الذى غارسه قلوب أن هذا الذى حدث كان فى العصور الوسطى لما اكتفى بحرق مؤلفاتى ، وإنما كنت شخصياً فى المحرقة . فمن هذه الزاوية هناك تقدم ملحوظ حيث اكتفى بحرق كتبى" ، وكان ذلك فى مايو ببرلين سنة ١٩٣٣ بل هناك بعض المختصين فى سيرة أسرة "فرويد" يزعمون أنه فعلاً لم يكتب بحرق كتب "فرويد" ، ولم يحرق هو لما يتمتع به من شهرة ، وإنما ألقى بأربعة من إخوته فى معارك النازية بعد ذلك فى سنة ١٩٤٣ .

ولقد فكر "فرويد" أن يضع حداً لحياته لولا مساندة وفيه "أرنست جونز" ووفيته المخلصة الأميرة "ماريا بونابارت" فقد سانداه فى محنته ونصحاها بالمنفى الاختيارى خارج النمسا مع أسرته .

وقبل رحيله من النمسا التقى عملاقنا مع "لو- أندرياس - سالومى" وقد بلغت من العمر عتياً فقد تجاوزت الستة والسبعين عاماً سنة ١٩٣٧ ، بعد أن عرفت فى شبابها التالى كرفيقة للشاعر الكبير "ريلكى" ، ثم من بعده رفيقة طريق لـ "نيتشه" وتعلمت على "فرويد" ، الذى حينما ماتت إبنتها وكان قد التقى بها لأول مرة سنة ١٩٢٨ ، هو كان يعانى من سرطانته وهى تعانى من سقوط شعرها عقب مرض شديد . ودار بينهما حديث فى التنزه عبر نزهة ككهلان حول الحضارة ، وأكدت "لو" أنها استنفدت أغراضها - تعنى حضارة الغرب - وأن أجناساً أخرى سوف تحمل المشعل . وذكرها "فرويد" بما قاله العملاق "نيتشه" باسم الأمل والتفاؤل فاهتزت "لو" ، وذكرها بما فى أعماقها تحملها كذكريات لهذا الإنسان ، إنسان التساكن مع الآلام ، إنسان الإنسان الخارق ، إنسان

وإنساني للغاية ، ذكرها بـ"نيتشه" لتستعيد المقاومة في نهاية العمر ولا تندم على الحياة ليصبح الموت النصر الأكبر ، ومن المعروف أن "فرويد" كانت له أيضاً علاقات بـ"آينشتاين" ، كما أنه رفض أن يشارك الشيوعيين أفكارهم ، بل كان متشائماً من مساهمة السوفييت في إصلاح العالم وإنقاذ البشرية ، ولهذا كان يكرر دائماً : "سأبقى ليبرالي بطريقتي القديمة" .

لقد عانى "فرويد" ، بل واكتسب من معاناته لقاحاً وتحصيناً جعله يتواجه معها على كل المستويات . فمن المعروف أنه ولم يتجاوز بعد الثامنة والثلاثين من عمره ، عرف أزمات القلب أو لغط القلب بعبارة أدق "تاكي كاردى" بمعنى اضطراب في ضربات القلب ، ومع هذا أصبح أباً لخمسة أطفال وزوجاً يسهر على هذه الأسرة ويرعاها ، ولم تقف به المعاناة عند حد اضطرابات القلب ، بل أيضاً عرف اضطرابات أخرى منها ما وصل به إلى السرطان ، سرطان الذقن الذي لاحقه سنة ١٩٢٣ ، وأجرى عدة عمليات جراحية للتخلص منه وعاد إليه ليلاحقه عام ١٩٣٦ . وكان كما أشرنا من قبل يفكر كثيراً في الموت مما حدى بأحد المختصين في سيرته "ماكس تشير" (Max-Schur) أن يضع مؤلفاً بعنوان "الموت في حياة فرويد" بعدة لغات ونقل إلى الفرنسية سنة ١٩٧٢ .

هذا المعانى ، من الغريب أنه كان مدمناً على التدخين بل كان يكرر : لا حياة بدون تدخين ، إلى جانب المعاناة لألم في الصدر ، بل ولم لا ؟ عملاق التحليل النفسى على حد تعبير أقرب المقربين إليه وهو "أرنست جونز" أن كل أنواع المعاناة هذه أقلعت أساساً كموارض خاصة "للبيسيكو نيفروز" الذهانية العصائية التى كان يعانى منها "فرويد" . وظهرت لديه فى شكل أزمة فى إبريل ١٨٩٤ لتعاوده بعد (١٨٩٣ - ١٨٩٦) .

فعملاق التحليل النفسى ربما من بين الأسباب التى دفعته إلى هذه

الممارسة معاناته فى حد ذاتها إلى جانب العوامل الأخرى . وكذلك يلاحظ أنه كثيراً ما كان يغمى عليه وتنتابه أزمات متعددة الألوان . هذا المعانى لم يصل فقط إلى أن يتصدر كرائد من رواد الفكر فى القرن العشرين فيما يعنى تخصصه . وإنما تم ترشيحه لجائزة نوبل فى ٢٨ يونيو ١٩٣٨ فى الوقت الذى بدأت رياح الرحيل تهب لتدفع بـ"فرويد" خارج النمسا نحو لندن ، ولا يمكن أن ينكر فضل الرئيس "روزفلت" فى تسهيل هذا الرحيل وحسن المعاملة له . وحينما علم "فرويد" بأنه سيتم منح فيزا الخروج كتب إلى ابنه "إرنست" الذى كان يعيش فى لندن مسجلاً أن هناك أملاً باقياً له فى هذه الأيام الحزينة ، الأول : هو أن أراكم وكلكم بجانبى ، أى أسرته .

هكذا يقول "فرويد" ، والثانى : هو أن غوت أحراراً ، وطلب من "فرويد" أن يوقع على وثيقة لأخذ الفيزا مؤذنة بخروجه من ألمانيا ، وهذه الوثيقة كتب فيها أنه كان يعامل معاملة طيبة من النازية والجستابو ، فقال لمسئول الأمن الذى طلب منه ذلك وحمل إليه الوثيقة : "هل فى إمكانى يا سيدى أن أضيف كلمة إلى ما كتبتم ؟ وهى أنتى أوصى بالجستابو وبكل تواده لكل البشر" .

وهكذا رحل "فرويد" من النمسا متجهاً إلى لندن بعد حياة حافلة بالإنتاج والعمل والمواجهة . وقد أشرنا إلى العديد من مؤلفاته ونضيف إليها على سبيل المثال "السيكولوجية المرضية فى الحياة اليومية" سنة ١٩٠٤ ، "تحليل الهستيريا" سنة ١٩٠٥ ، "تحليل الفوبيا لطفل فى سن الخامسة" سنة ١٩٠٦ ، "ملاحظات تحليل نفسى حول السيرة الذاتية لحالة بارانويا" سنة ١٩١١ ، "الطوطم والطابو" سنة ١٩١٣ ، "مدخل إلى التحليل النفسى" سنة ١٩١٧ ، "تاريخ عصاب طفلى" سنة ١٩١٨ ، "الأنا والهو" سنة ١٩٢٣ ، "مستقبل سراب" سنة ١٩٢٧ ، "متاعب فى الحضارة" سنة ١٩٢٩ ،

"لماذا الحرب؟" سنة ١٩٣٢ ، نعم رحل "فرويد" إلى لندن في يونيو ١٩٣٨ ، منذراً بالرحيل الأخير من عالم المعاناة بعد عام . وفي لندن كان - وعلى حد تعبيره : السرور ممزوجاً بالأحزان لتركه هذا السجن الكبير الذى أحبه وهو فيينا ، وهناك فى لندن التقى مع باقى من يعيشون فى المنفى أمثال "زويك" و "دالى" الفنان الكبير الذى اعترف "فرويد" بعد التقاء به أنه قد غير رأيه فى السريالية وكذلك "مان" . وكان فى لندن يستقبل بعض المرضى فى إطار التحليل النفسى ، ويكتب فى الجزء الثالث من مؤلفه "موسى والتوحيد" ، إلى جانب استكمال ملخصه فى التحليل النفسى الذى لم ينته منه فى سنة ١٩٣٨ . وحينما شعر بقرب الرحيل من هذه الدنيا كان من قراءاته المفضلة قصة "راشيل برداخ" ، "الإمبراطورية والحكيم والموت" التى تنتهى بالقول : "آخر سكان العالم العادى الخالى من كل المخلوقات الحية البطل يموت فى ليلة جليدية بعد أن تخلى عنه الجميع" ، وما هى إلا شهر حتى عاوده سرطان الذقن المزمن ، بل كانت تنبعث منه روائح كريهة لدرجة أن حيوانه المدلل "شوشو" لم يتحمل هذه الرائحة العفنة ، وابتعد عن سيده ، وكان ينطوى فى ركن بعيد عن المكتب ، بعيد عن "فرويد" سيده الذى كان ينظر إليه ، إلى هذا الأليف بحزن عميق ، وكأن لسان حاله يقول له : حتى أنت يا "بروتس" ، وهكذا وصل "فرويد" فى وحدته هذا العملاق المتحدى إلى مرحلة المأساوية الرهيبة ، وذلك حينما صعبت عليه القراءة ، وكانت آخر قراءاته "جلد الآلام" لـ "بلزاك" . تكالبت عليه الهموم والأمراض وعادته أزمات القلب بدورها فى أثناء سفره إلى لندن فى سنة ١٩٣٨ ، وما تلاها ، وفى ٢١ سبتمبر أى قبل وفاته بيومين من سنة ١٩٣٩ وكان "تستشير" طبيبه إلى جانب سريره ، سأله "فرويد" قائلاً : "عزيزى "تستشير" لعلك تتذكر محادثاتنا الأولى ، وقد وعدتني أنك لن تتخلى عني فى اللحظات الأخيرة ، والآن كل شئ يعنى الآلام المتصلة ولم يعد للحياة أى معنى يستحق الذكر" . فرد عليه "تستشير" أنه لم ينس وعده . كلمات قليلة

قبل لحظات الموت تعنى الكثير بالنسبة لعملاقنا الذى زعم أنه شرح كل شئ وقادر على أن يغوص فى الأعماق دون كلل ، وأنه احتوى عقبة الإنسان الكبرى وهى اللاشعور وترجسيته التى تجاوزها بالتحليل النفسى . هذا "فرويد" العملاق يعلن لنا فى نهايته أنه لم يعد للحياة أى معنى يذكر . وكان من الأولى وهو المنبهر بهذه الحياة والمركز عليها باعتبارها الأولى والأخيرة ، وجعل كل شئ من الإنسان وإليه . كيف يفسر هذا الانهيار المقنع ، الذى لم يتمالك طبيبه إلا أن يجامله وأن يستجيب لرغبته بإعلام ابنته "آن" ، بتفسير هذا الاختيار الرهيب لرجل بدأ يتعامل مع الحقيقة ، فكشف عنه الغطاء ، فأصبح بصره حديداً ، وعرف حقيقة الدنيا التى كثيراً ما ركز عليها وأعطاهم الأولوية ، وهى فى الواقع بالنسبة للمؤمن لا "لفرويد" تعنى مجرد بلاء وكبد وكمد ولهو ولعب ، يكتشفها المؤمن بنور قلبه فى بداية الطريق لا فى نهايته كما اكتشفها "فرويد" الذى نراه بهذا التعبير ، الذى نراه يعلن لطبيبه بطريقة غير مباشرة بل ويطلب منه صراحة أن يضع حداً لآلامه وذلك بمضاعفة الجرعة ، جرعة المورفين بطريقة تنهى كل شئ .

واستجاب طبيبه لذلك بعد أن أعلم ابنته ومنحه الحقنة القاتلة لوجوده ، والتى تضع حداً لآلامه أيضاً ، فتناول "فرويد" جرعة حقنة المورفين المضاعفة وغاب عن وعيه ليدخل فى سكرة عميقة ثم كررت له الجرعة مرة أخرى فكان الإغماء وكانت النهاية ، وذلك فى يوم ٢٣ سبتمبر ١٩٣٩ . وفى صباح ٢٦ سبتمبر حرق "فرويد" حسب وصيته ليتحول ما تبقى منه إلى رماد وضع فى مزهرية وهى إناء قديم يونانى أهدته إليه الأميرة "ماريا بوناپارت" وهو معد أساساً للورد والزهور ليوضع فيه "فرويد" و"إرنس جونسن" الأليف الرفيق ألقى كلمات الوداع الجنائزى . وشارك الكاتب "زويك" بعرض عنه كمغامرة إنسانية كبرى . وهكذا توالى المراثى عن هذا العملاق لتبرز المكانة الكبرى التى كان يشغلها بين معاصريه فأبّنه الكثير من فلاسفة ومفكرى العصر أمثال "ميشل فوكو"

الذى اعتبره ملتقى انصبت فيه كل معطيات الطب النفسى للقرن التاسع عشر ، و"توماس مان" الذى اعتبره أحد الدعائم التى تعتمد عليه الانثروبولوجيا المعاصرة ، و"وليام رايش" الذى التقى به فى سنة ١٩١٩ واعتبره شخصية تتحلى بالحيوية والحماس ، ثم التقى به بعد ذلك مراراً وتكراراً وكان يكن له مشاعر التقدير ، و"تيودور رايك" الذى لم يخف تقديره لما قدمه "فرويد" للإنسانية وكتب عنه أيضاً كما كتب عنه الكثير أبحاثاً ومؤلفات . وبلغات متعددة ، وحتى "سارتر" لم يخف أنه كان رفض "فرويد" فى شبابه فلا يقال إنى رفضته لأنى فرنسى وأنه غير ذلك ، ولكن لم ينكر تقديره له وغرغم ، سواء أكانوا من العارفين له من البداية أو ممن أنكروا عليه العملاقة وعادوا ليعترفوا له بها ، ومع هذا فهناك إجماع على تصدر "فرويد" كقدرة من قدرات العصر الذى وصل بتفجير طاقات العقل البشرى ليحلل إرادة الإنسان شعورياً ولا شعورياً . هذا "فرويد" المتصدر تبقى كلماته الأخيرة وهو يحتضر رمزاً يؤكد حدود الإنسان وأنه مهما بلغ من القدرة فلا يمكن أن يكون إلا هذا الضعيف بنص القرآن ، والذى أراد له الله سبحانه وتعالى التخفيف : "يريد الله أن يخفف عنكم ، وخلق الإنسان ضعيفاً"^(١) ، إنه صاحب الأمانة التى عرضت على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها ولكن الإنسان حملها وهو ظلوم جهول ، فهو الذى يقول على لسان "فرويد" فى القرن العشرين وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة كعملاق : "لم يعد للحياة أى معنى يستحق الذكر" ، هذا القنوط الذى وصل إليه عملاقنا فى نهايته بعد أن أسرف مغالياً فى تحديه ، وأوصله به إلى الطريق المسدود يذكرونا بمصادقية الآية الخالدة المعيارية التى احتفظت لعباد الله المؤمنين به بالرحمة مهما كانت طبيعة المعاناة ، يقول الحق سبحانه وتعالى : " قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم"^(٢) .

(٢) الزمر : ٥٣

(١) النساء : ٢٨

ما أخرج "فرويد" الذى أعطى للبشرية لو أنه انحنى لمخالقته ولم يتكبر أو يستكبر لأن يرحم فى نهايته بعد قنوطه ويأسه من الحياة ، ولكنه أبى واستكبر مترجماً لأناته ، ومعبراً عنها فى كلمات متقطعة لفظها فى سكرات الموت معلناً لواقع الاحتجاج المضرر والكامن فى أعماقه ، والأسى المترسب فى وجدانه لمأساة التنكر والتكران بعد أن افتقد منه الزمان ، الذى توهم فيه الأمن والأمان ، تجاهل رحمة السماء فأضحى وجهاً لوجه مع قسوة وجبروت البلاء .

ويستمر بنا الحوار لننتقل به إلى فرنسا مع "جان بول سارتر" هذا الفيلسوف الوجودى الذى ترك بصماته فى ساحة الفكر لهذا العصر له ما له وعليه ما عليه ولكن كمعلاق . فماذا عنه وعن نهاية هذا المعلاق ؟

* * *

الفصل الحادى عشرة

"جان بول سارتر" ونهاية عملاق

"جان بول سارتر" الذى عرف نور الحياة فى مدينة النور بـ "باريس" فى ٢١ يونيو ١٩٠٥ ، وتابع دراسته بـ ليسيه هنرى الرابع فى الفترة ما بين (١٩١٥ - ١٩١٧) . وتنقل فى ليسيهات أخرى ، ليلتحق بعد ذلك بالمدرسة العليا للأساتذة . وكان من رفاقه فيها "ريمون آرون" و"لجاش" و"نيزان" . ورسب فى التبريز فى الفلسفة عام ١٩٢٨ ليحصل عليه فى العام الثانى ١٩٢٩ بتفوق مع أليفته ورفيقة عمره "سيمون دى بوفوار" وليعين أستاذاً لهذه المادة عام ١٩٣١ فى ليسيه "الهافر" . كما عمل أستاذاً فى مرسيليا وغيرها من المدن الفرنسية ، وأقام عاماً بـ برلين ما بين (١٩٣٣ - ١٩٣٤) لدراسة "الظاهرة" أو بمضمونها الألمانى المعنى الظاهرية ليتعامل فكرياً مع "هسل" و"كافكا" وغيرهما . وبدأ فى النشر لأبحاثه فكان فى سنة ١٩٣٦ بحثه القيم عن "تسامى الأنا" ، وذلك فى مجلة "البحوث الفلسفية" . وعاد للعمل من جديد أستاذاً فى الليسيات (١٩٣٦ - ١٩٣٧) ، ثم نشر "الحائط" سنة ١٩٣٧ ، وظهر له فى سنة ١٩٣٨ "الغثيان" ليبدأ بعد ذلك فى الحرب العالمية الثانية فى الجبهة الشرقية . وقضى عام ١٩٣٩ فيها . وكان يعمل بتقسيم التنبؤات الجوية ، وعرف السجون فى عام ١٩٤٠ والمعتقلات . ثم كانت الحرية له بأنه ليس بحربى وأنه "مجرد مدنى" لا أكثر ولا أقل اعتقل بالشبهة . ومرة أخرى يعود للعمل فى الليسيات بباريس ، ويؤسس الجبهة التى حملت عنوان "المقاومين المثقفين" وظهر له فى سنة ١٩٤٣ "الذباب" وقبلها دراسة عن التخيل كما ظهرت له رائعته "الكائن والعدم" أو "الوجود والعدم" ، كما ترجمت إلى العربية وأسهم بين المقاومين فى تحرير باريس .

كما أسس فى سنة ١٩٤٥ "الأزمة الحديثة" ، وزار الولايات المتحدة

وكانت محاضراته هناك عن الوجودية نزعة إنسانية سنة ١٩٤٦ ، وظهر له "سن الرشد" و"طريق الحرية" . ثم كانت مواجهاته الفكرية مع الشيوعيين والفاشيكان سنة ١٩٤٨ ، كما أسس حزباً باسم "التجمع الديمقراطي الثوري" . وكانت له مواجهات مع "مورياك" سنة ١٩٥٢ . وفي نفس العام أيضاً مع "كامي" . ومعارضته لسياسة ستالين ، وتدخل الروس في هانغاريا . ويلاحظ أن "جان بول سارتر" كثيراً ما كان يكتب في المقاهي . ومنذ عام ١٩٤٢ حيث المكان المفضل له ، بل هناك مقاهي في باريس اشتهرت لتردده عليها كـ"مقهى "الفلور" ومقهى "الديماجو" . وكانت له لقاءات مع "هايديجر" . وإلى جانب أليفته ورفيقة عمره "سيمون دي بوفوار" كان من المترددين عليه الأديب "جان جاني" ، وقد وضع عنه "سارتر" كتاباً بعنوان "جان جاني الكوميدي الشهيد" سنة ١٩٥٢ ، كما نذكر له أيضاً "تأملات في المسألة اليهودية" سنة ١٩٤٦ و"الموسم المحترمة" في نفس العام ، و"بودلير" سنة ١٩٤٧ و"الشيطان والإله الطيب" سنة ١٩٥١ . ومن قبل كان قد كتب "موتى بلا مدفن" في منتصف الأربعينات ، و"الأيدى القذرة" في نهاية الأربعينات . ونذكر له من مؤلفاته الأخيرة في السبعينيات "أهله العائلة" سنة ١٩٧١ وما تلاها ، "فلويزر" في نفس الفترة ، وغير ذلك الكثير....

لقد أثرى "سارتر" بمؤلفاته ليس فقط الفكر الفرنسي المعاصر أدبياً وفلسفة ، وإنما الفكر العالمي باعتبار أن العديد من هذه المؤلفات ترجم إلى اللغات الأخرى . ولم يشغل سارتر فقط حيزاً عريضاً واسعاً في التأليف والإنتاج المتنوع والمتعدد في الأدب والفلسفة ، وإنما شغل حيزاً لا يستهان به من الحضور في ساحة المواجهات ، واتخاذ المواقف دفاعاً عن المقهورين أو المصادرين ، وبالتالي قرن اسمه بالتحدي الفكري لمواجهة النازية والشيوعية ، وحتى فرنسا العسكرية نفسها بموقفه من حرب التحرير في الجزائر ، وتعاطفه مع قضايا الشعوب المقهورة والمستضعفة .

وسافر هنا وهناك من كوبا إلى مصر ، فضلاً عن زيارته للاتحاد السوفياتى والصين . ومع هذا يؤخذ عليه موقفه من القضية الفلسطينية ، بعد زيارته للمنطقة ، وتعاطفه الصريح أو المقتنع مع الإسرائيليين . وهو بلا شك فى بعض هذه المناحي غريب الأطوار ، متميزاً فى إيجابياته وسلبياته ، نخص بذلك رفضه لهذا التكريم العالمى الممثل فى جائزة نوبل للآداب ، مما كلف فرنسا أنها حرمت من الجائزة بعد ذلك قرابة عشرين عاماً ، أى حتى الثمانينات وحصول "كلود سيمون" عليها ، وكأن الأكاديمية السويدية أرادت بعد ذلك رد الاعتبار والهيبة للجائزتها ، ولقد ترأس "جان بول سارتر" محكمة "راسل" التى قامت بنقد وتفنييد السياسة الأمريكية فى فيتنام . وقد كان له موقف متميز أيضاً ضد تدخل روسيا فى تشيكوسلوفاكيا . فهو رافع علم الضدية ليتواجه مع كل أنواع القمع ، حتى فيما يعنى "شارل ديغول" رمز فرنسا ، وتظاهره ضده حينما تولى السلطة فى نهاية الخمسينات . وتعاطف مع النشاط اليسارى منذ عام ١٩٧٤ ، ورغم ظروفه الصحية التى لم تكن دائماً على ما يرام لم يتوقف نشاطه الفكرى .

ومن آخر الأعمال التى تذكر له عمل مشترك مع "بييرفيكتور" بعنوان "السلطة والحرية" ولكن الموت أنهى عليه قبل أن ينتهى منه . ومن أواخر ما يذكر له كلقاءات فكرية ، لقاءات ثلاثة تمت معه عشية وفاته أجراها معه كأحاديث "لمجلة الملاحظ الجديد" الفرنسية الكاتب "بنى ليشى" ورحل "جان بول سارتر" فى ١٥ إبريل ١٩٨٠ ليرقد إلى جانب من تعاطف معه ، وهو من مشاهير المستريحين فى مقبرة "مومبارناس" . ونعنى به "بودلير" وهنا نتساءل بعد هذه الفكرة المركزة والتى عرفنا من خلالها بـ "جان بول سارتر" عبر مراحل حياته وإنتاجه عن محور فكر هذا الأديب والفيلسوف الفرنسى المتحدى بوجوديته وبوعيه الشقى الساخر فى العديد من الأحيان حتى من خالقه ، كما هو الحال فى مسرحيته "الشيطان والإله العليل" كما نتساءل عن نهايته كعملاق ؟

فيما يعنى فكر "جان بول سارتر" قد مر بمراحل جمعت بين ما هو نفسى وانتلوجى وديالكتيكى ، فهو بالنسبة له "كل موجود يوجد بلا سبب" ، ويستطيل به العمر عن ضعف منه ، ويموت بمحض الصدفة كما ذكر فى "الغشيان" الإنسان فى "الكائن والعدم" أو "الوجود والعدم" نشوة لا يرى فيها أية فائدة . ولكن الوجودية حسب "سارتر" كنزعة إنسانية تطالبه أن يحقق نفسه خارج نفسه ، فليس هناك شئ بقادر على إنقاذه من نفسه ، بل عليه أن ينقذ نفسه بنفسه ، ويلاحظ أن "سارتر" بقدر تأثيره بـ "هسرل" فى ظاهريته ، كان متأثرا بـ "هايديكير" . وقد تحفظ على بعض أفكار "هسرل" كما تحفظ أيضاً على النزعة الوضعية فى السيكلولوجية لما تعاني من مزج وخلط بين الإدراك والتخيل ، وقد وضع سارتر كمنطلق لوجوديته أن الوجود سابق للماهية .

فالإنسان يوجد غير محدد بنعوت أو بصفة ، ويقفز بنفسه فى المستقبل ، بفضل ما يؤديه من أفعال . فالإنسان مشروع ولا شئ قبل ذلك . فهو المصمم لمشروعه والمحقق له بما يستطيع ، وبالتالي فهو مسئول عما يفعل مسئولية كاملة عن وجوده ، مسئوليته كمسئولية الجميع - فاختيار الإنسان مرتبط باختيار الآخرين . الإنسان ملزم للإنسانية كلها ، هذه المسئولية وهذا الإلزام هما مبعث القلق البالغ له ، كما أن إقلاع "جان بول سارتر" من أن الوجود يسبق الماهية ترتب عليه الحرية ، فهو الحرية نفسها ، الوجودية ليست بفلسفة استكانة واستسلام ، بل هى فلسفة نشطة تعرف الإنسان بفعله ، وليست بتشاؤمية لأن مصير الانسان بيده لا بيد غيره ، ووجود الذات بالضرورة يعنى إدراك وجود الغير . فالذى يتكشف عن وجود نفسه هو فى نفس الوقت يكتشف ويكشف وجود الآخرين ، وكذلك حريته بالضرورة تتوقف على حرية الآخرين والعكس . فاختيار الوجودى لحيته هو فى نفس الوقت اختيار الحرية للآخر ، لقد تأثر كما أشرنا "جان بول سارتر" بظاهرية "هسرل" وتطبيقات "هايديكير" لها ، حيث نلاحظ فى مؤلفه الهام "الكائن

والعدم" أو "الوجود والعدم" تمحور "سارتر" حول مقولة وجود الموجود ما يظهر عليه ، وليس له طبيعة مبطنة الظاهر حقيقة مطلقة ، الموجود لذاته لتحقيق نفسه لا يحقق ماهية خارجة عنه . الشعور هو مشروع وجود وليس الوجود المكتمل الثابت لا المتغير ، النزوع نحو المستقبل والتوصل من الماضي . فهو موجود فى اللحظة التى يوجد فيها ، بخلاف الأشياء الماضية ذات الوجود الثابت . من هنا كانت حرية الإنسان هى صميم وجوده الشعورى القلق ، هو حر لأنه يخلق نفسه بنفسه كل لحظة ، وليس هناك طبيعة أزلية فرضت عليه ، ليس للإنسان تعريف فهو موجود أولاً ثم يظل يخلق ماهيته بما يختاره لنفسه من أفعال ، فليس للإنسان إلا ما يختاره لنفسه أن يكون . الموجود لذاته باختصار هو موجود بلا سبب ولا تفسير ، قذف به فى العالم فهو مسئول عن كل شئ وغير مسئول عن مسئوليته ، بينما الموجود فى ذاته هو الوجود المباشر وليس فيه إحالة لجوهر ثابت ، فهو سلسلة ظواهر تتكتل وليس فيها ثغرة ينفذ منها إلى العدم ، فهو الواقع المغتنى بنفسه ... وهو موجود فى ذاته بالفعل لا بالقوة . وحين عرضه لمفهوم الشعور ، هو يعنى بُعد الأشياء غير الموجودة ، وغير خاضع لضرورة الزمان والمكان التى تفرض نفسها على الأشياء ، الإنسان حسب "سارتر" لا يوجد إلا بقدر ما يحقق بنفسه لنفسه . الإنسان ليس بشئ آخر غير حياته وخارج حياته ، وفى نقد العقل الديالكتيكى يطرح لنا "سارتر" انطلاقة من إنكاره لفكرة العقل الجماعى الذى يعلو على عقل الأفراد ، ويرى أن مسيرة التاريخ الإنسانى ليست شيئاً آخر غير الأفراد الذين تتكون منهم . فالأفراد هم الموجودون وهم التاريخ ، فارتكز فى جدليته بالتالى على الفعل الفردى .

وهنا يمكن أن نطرح تساؤلات حول علاقة فكر "سارتر" بالماركسية قرأاً أو بعداً ، وإن كان بالنسبة لـ "جان بول سارتر" كثيراً ما يريد أن يتميز بأنه هو صاحب المفاهيم التأصيلية للماركسية غير المحرفة أو المزيفة . وهكذا يكون التساؤل : من هو الفاهم الموضوعى فى النهاية لهذه الماركسية

المتصورة ؟ يلاحظ هذا بالنسبة لـ "سارتر" كما يلاحظ بالنسبة لـ "لوكاتش" و"كاوتسكى" وغيرهم الكثير ممن حاولوا أن يفرقوا بين الماركسية الصحيحة والماركسية العوامية ، والماركسية الملتزمة والماركسية المرتدة ، وفى النهاية نعود الى البداية تحت هذا التعبير الذى يتردد دائماً : " ليس من المستبعد أن ماركس بدوره لم يعد ماركسياً " .

وعلى ضوء هذا يمكن أن تفهم العديد من التناقضات والمواجهات بين المتعاطفين مع الماركسية مع تقديم لأحزاب الشيوعية . كذلك التنفيذ لبعض النظم الماركسية من هؤلاء المتعاطفين ، بل التلاغى بين هذه النظم بمعنى كل يخطئ الآخر ويحاول أن يلغيه ، ومن ثم "جان بول سارتر" يوضع فى نقد العقل الديالكتيكى داخل هذا الإطار .

ولن يريد التفصيل عن هذه القضية يراجع "قليب هودار" فى مؤلفه الهام الذى صدر منذ سنوات (١٩٧٩) بعنوان : "سارتر بين كارل ماركس وفرويد" ، حيث إنه تعرض بعد أن شرح طريق الحرية للكائن ، و"سارتر" و"فرويد" النظرية والتطبيق وتركيزه على "أبله العائلة" واتجاهه إلى القول بالتصالح بين "فرويد" و"سارتر" . كما تعرض لـ "ماركس" و"سارتر" بين الحرية والتمرد والأمل وخيبة الأمل والرهان وتحدى الفيلسوف إلى غير ذلك من العناصر التى يمكن أن تلقى بعض الأضواء فى هذا المضمار .

ويبقى الشطر الثانى من التساؤل الذى طرحناه عبر هذا الحوار عن "جان بول سارتر" وماذا عن نهايته كعملاق ؟

هذا الفيلسوف المتمرد ، فيلسوف "الغثيان" و"الذباب" و"الوجود والعدم" و"الموت فى الروح" إلى غير ذلك من المعالم التى طرحها فى مؤلفاته ، حتى الإله كان لـ "جان بول سارتر" ، معه تعامل لا يدخل فى

إطار المتعارف مما حدى بأحد كتاب سيرته وهو "بريساك" أن يضع مؤلفاً قائماً بذاته يحمل عنوان "إله سارتر" . هذا الفيلسوف "جان بول سارتر" إلى أين وصل به تحديه وتمرده في نهاية العمر وفي آخر المطاف ؟

بلا شك من يراجع الاحاديث الاخيرة التي أجراها "فيكتور بنى ليثى" وهو من المقربين له ، ونشرت في مجلة "الملاحظ الجديد" بالفرنسية إلى جانب ما كتبه "آنى كوهين سولال" بعد رحيل "جان بول سارتر" ونشر أخيراً عام ١٩٨٥ عند جاليمار بعنوان "سارتر" مؤلف ضخيم يقع في سبعمائة وثمانية وعشرين صفحة ، هاتان الوثيقتان ما كتبه "فيكتور بنى ليثى" وما كتبه "آنى كوهين سولال" تعتبران من المراجع الأكثر حداثة ، بل والأكثر قرباً لظهار "جان بول سارتر" من خلال اعماقه الحميمية وبدون رتوش . مع أخذنا بعين الاعتبار ما كتبه الآخرون أمثال : "جانيبان" بعنوان "مع أو ضد سارتر" وما كتبه مؤرخ سيرته "جونسن" وفي عدة مؤلفات عن فكره وحياته ، بل وما كتبه أليفته ورفيقة عمره "سيمون دى بوفوار" قبل وفاتها ، وبعد وفاته ونشر عام ١٩٨٤ بعنوان "مراسيم الوداع" وغيرهم الكثير ممن كتبوا عنه واهتموا بسيرته . فالمتصفح لما خطه "فيكتور بنى ليثى" في أحاديثه مع "جان بول سارتر" وما كتبه "آنى كوهين سولال" ، وقد زامناه في لحظاته الأخيرة . فـ "فيكتور بنى ليثى" كان في القاهرة . وحينما علم في ٢٠ مارس ١٩٨٠ أن "جان بول سارتر" نقل على عجل إلى المستشفى عاد لتوه ليكون إلى جانبه . وبشكل مع اهنته بالتبني "أرليت إلكايم" ، وقد تبناها في نهاية الستينات . ورفيقة عمره "سيمون دى بوفوار" و"آنى كوهين سولال" . المجموعة الأخيرة التي انعكس عليها هذا الفيلسوف ، هذا العملاق ومن خلالهم سوف نتكشف على نهايته .

نقل "جان بول سارتر" إلى المستشفى في ٢٠ مارس ١٩٨٠ ، ولفظ أنفاسه ذات مساء من يوم ١٥ إبريل ١٩٨٠ ، خمس وعشرين يوماً

تكشف عنها تباين فى تقنين نهاية العملاق . بل هذا التباين قمحض عن مواجهات بين من كانوا يتمتعون بعلاقات خذنية مع الفيلسوف . ونعنى بذلك "سيمون دى يوفوار" من ناحية "وأرليت إلكايم" ابنته بالتبنى من ناحية أخرى . هذه المواجهات تحولت إلى مهاجمات علنية بينهم فى الصحف بعد وفاته . ربما يبحث عن جذور هذه المواجهات فى الفترة التى سبقت حمله إلى المستشفى ، بل ربما أيضاً كانت من الأسباب المباشرة التى أزمّت الفيلسوف المتأزم وزادت من محنته حينما احتدت المناقشة فى مقر الأزمنة الحديثة مع من يحيطون به ، ونقل بعد ذلك مريضاً إلى المستشفى ليبارحها إلى القبر ، الجانب الذى يعنينا هو بالذات هل تصالح فى النهاية "سارتر" مع "سارتر" فى حضور الله ، أم غدر "سارتر" بـ "سارتر" أم اختفى "سارتر" المنتفخ المتبجح المستكبر ، أم تفاعل وتراجع أمام "سارتر" الضعيف المحتضر . إن أقرب أتباعه ومريديه وهو "باربونا" يؤكد أنه كان فى أعماق "جان بول سارتر" مسيحى متنكر يحجبه بتمرده ، كما جاء فى المؤلف الأخير لـ "أنى كوهين سولال" ص ٦٦٢ ، بل وحينما سئل الفيلسوف وفى النهاية الى أين قاداته فلسفته ؟ أجاب : "فلسفتى قادتني إلى هزيمة نكراء "وبيع" جان بول سارتر" عبر بقاياها وأمتعته فى المزاد العلنى ، وبأسعار زهيدة ، وكان ذلك فى يوم عادى وهو يوم ١٢ يونيو ١٩٨٤ فى الصالة رقم ١ من صالات المزادات بقاعة "دريو" الجديدة . أربع سنوات مضت بعد رحيل الفيلسوف ، وبيعت أمتعته ومخطوطاته ، وإن كانت فرنسا كرمته يوم رحيله إلى قبره فى مقبرة "مومبارناس" ، بل رئيس جمهورية فرنسا آنذاك "جيسنار ديستان" أبى إلا أن يقف أمام جسد "سارتر" بخشوع ، بل وينحنى لا لـ "سارتر" وإنما لهذا الفكر الذى قدم من خلاله إعلاء لعقل فرنسا وتفوقه الإنسانى فى الغرب . بل طلب "ديستان" كرئيس للفرنسيين أن يودع "جان بول سارتر" إلى مثواه الأخير وداعاً وطنياً . ولكن حينما وصل الخبر إلى مسامع "جان بول سارتر" فى لحظاته الأخيرة رفض رفضاً باتاً ، وأبى إلا أن يرحل إلى

مشواه رحيل أى مواطن . ومن ثم احترمت رغبته بعد وفاته ، واعتذر المحيطون به من رفاق ، وحملوه فى وداع شعبى وصل إلى سبعة عشر ألفاً من الباريسيين شاركوا فى حمل نعشه ليرقد إلى جانب مفكر عزيز عليه ، وهو "بودلير" . فحينما ذهب الحميميون لـ "جان بول سارتر" وفاتحوا مقبرة مومبارناس فى أن يخصص مكاناً لديه يستضيف فيه "جان بول سارتر" الاستضافة النهائية والأخيرة . فأجابهم قائلاً : "إنى كما قرأت على علم بمدى توارد "سارتر" مع "بودلير" وسوف أجسد له هذا التوارد ليرقد إلى جانبه وإلى الأبد".

رحل "جان بول سارتر" وبعده بثمانية عشر شهراً رحلت أليفته ورفيقة عمره "سيمون دى بوفوار" والتي فضلت خلال هذه الشهور أن تسكن على مقربة من مرقده وإن كانت "آرليت إلكايم" ابنة "جان بول سارتر" بالتبني لا تتفق مع "سيمون دى بوفوار" فى أن مشاعرها هى مشاعر الوفاء ، بل اعتبرت أن "جان بول سارتر" لم يكن بالنسبة إليها إلا جسراً عبرته لتحقيق من خلاله رحلة طموحها إلى المجد ومسيرتها إلى الشهرة والاشتهار . ومهما يكن الأمر فما يعنيننا ، هو أن نهاية هذا العملاق لم تشذ عن نهاية بقية العمالقة الذين عايشناهم فى رحلة حوارنا عبر فصوله المختلفة فد "جان بول سارتر" كـ "فرويد" كـ "نيتشه" كـ "سترنديج" كـ "ماكس فيبر" كـ "سبنسر" كـ "داروين" ، كـ "كارل ماركس" و"كونت" و "سان سيمون" فى النهاية نعود إلى نقطة البداية ، وإذا بنا نكتشف فى مسيرتنا الحوارية هذه حقيقة الإنسان هذا الذى أراد الله أن يخفف عنه تأكيداً لمعرفته بواقع أبعاده وحدوده كخالق ومصور له ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى : "يريد الله أن يخفف عنكم ، وخلق الإنسان ضعيفاً" (١) .

(١) النساء : ٢٨ .

ولكن هذا الصنف من العمالقة اختار أو على الأقل الجانب الغالب منهم طريق الاستكبار والتحدى باسم التمرد والوعى الشقى ، فكان ما كان من نهاية ، عرضناها بنزاهة وموضوعية ما أمكن ، وبأسلوب مباشر .

هذه النهاية هل هي "نهاية عمالقة" ذهبوا لتركوا المكان لعمالقة آخرين يحملون الراية مكملين ومكملين لمسيرة الإنسان ؟ الإنسان المخارق ، إنسان "تيتشه" ، أم هي تعنى "عمالقة النهاية" لحضارة الغرب . نهاية العمالقة أم عمالقة النهاية ؟ هذا ما سوف نطرحه فى خاتمة هذا الحوار الذى خصصناه لحضارة الغرب من نهاية عمالقة فيها أم عمالقة النهاية لها .

* * *

نهاية عمالقة .. أو عمالقة النهاية

وصلنا بحوارنا عن عمالقة في حضارة الغرب إلى النهاية . أن نهاية لهؤلاء العمالقة فحسب . أم لكل العمالقة في هذه الحضارة ؟ بمعنى أقول عصرها ودق النواقيس لها بالتراجع والإيذان بالنكوص والاضمحلال ، فالاحتضار والاندثار . شأنها في ذلك شأن ما سبقها من حضارات كبرى سادت واندثرت .

إننا نستبعد من البداية أن تكون النهاية التي أوردناها في حوارنا تعنى نهاية كل العمالقة . وإنما تعنى نماذج مختارة من هنا وهناك لعمالقة أساساً برزوا في الفكر الإنساني وعرضناها على سبيل المثال لا الحصر تاركين لغيرنا أن يقدم ما يراه من نماذج أخرى وما أكثرها لمن تعلقوا بتجاربيهم المخبرية . واكتشافاتهم واختراعاتهم وابداعهم في مختلف ضروب المعرفة . ومع هذا يبقى تساؤل مطروح بالنسبة لما ذكرنا وهو : إلى أى حد يجسد من اخترناهم من العمالقة أزمة لهذه الحضارة في مسيرتها ؟ وهل هي أزمة عابرة وطارئة تنصب على وظائف الحضارة وتتجاوز بتصحيحها كما يتصور ذلك مروجو التفاؤل . أم أنها أزمة عضوية تنذر بالتفكك والانحيار كما يذهب إلى ذلك دعاة التشاؤم ومقرروه ؟ ففي نظر هؤلاء المتشائمين : الحضارة استلبت لإشباع وشهوة الاستهلاك ، متمردة على كل ما يوقف أو يحد من هذا المد سواء في ذلك الإطار القيمي أو الروحي بل وفي بعض المناحي الإنسانية . فالعدو النازل قد بدأ لحضارة الأشياء بعد أن تنكرت للإنسانية وباسم الإنسان . فاختنقت ذاتياً ، لا نتيجة لقوة أعدائها وخصومها أو من يتطلعون بمبرراتها ، ولا مصداقية لنبوءات "كارل ماركس" الخاصة بالتدمير الذاتي للرأسمالية ، فالتدمير حالياً لا يرى على مستوى شق معين من هذه الحضارة الغربية ، وإنما على مستوى شقيها الليبرالي والماركسي ، فالأم

واحدة وإن اختلفت المبررات والوسائل والركيزة الثلاثية التي يعتمد عليها كل شطر توجد بالضرورة لدى الشطر الآخر . ونعنى بذلك المعرفة التكنولوجية ، الأسس العلمية ، التطبيق الصناعي وما يملياه من برمجة وعقلنة على مستوى الإنتاج والتبادل والاستهلاك .

وهكذا أزمة الحضارة من الخطأ أن ترى على ضوء حيثيات أيديولوجية محددة قننت في القرن التاسع عشر ، وإنما الأزمة أعم وأعمق نتيجة لتعدد العوامل المهيمنة لها ، بل ولخصوصيات هذه الحضارة في حد ذاتها باعتبارها حضارة ركزت على الوعاء والقالب للإنسان كجسد إشباعاً ورفاهية ورخاء ، وتلذذاً بالمقتنيات التي استلب بها في النهاية ، ونسيت أو تناست ، جهلت أو تجاهلت الأبعاد الأخرى للإنسان وفي الصدارة إنسانية الإنسان ، فـ"مركيز" أحد فلاسفة العصر حينما ركز على الإنسان ذو البعد الواحد لهذه الحضارة لم يكن بعيداً عن هذا المنظور ، ودعوته إلى مواجهة حضارة التدمير وتجاوزها وما عاصر ذلك من أحداث في نهاية الستينات ، متمركزة أساساً في أواسط الشباب في فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية وغيرهما ، مما جعل هذا الفيلسوف يتصدر من بين المبشرين بأفول حضارة الغرب .

ويزامن "مركيز" ويجاريه ولكن بحيثيات متباينة ، بل واختلاف في الانتماء المذهبي والاختيار الفكري ، عدد من الفلاسفة الآخرين التقوا جميعاً في إبراز المآزق لهذه الحضارة من "راسل" وموقفه المعروف من الوجه النووي الذرى المدمر لهذه الحضارة ، ومسيراته في هذا الشأن ، والمحكمة التي حملت اسمه مع "جان بول سارتر" وحتى "هيدجر" فيلسوف الوجودية المتميز ، وطرحه للطريق التي لا تؤول إلى أى مكان و"كارل جاسبرس" ومقولته عن الإدانة الألمانية ، و "كامي" الطاعون والعبث ، و "سارتر" الذباب والغثيان وغيرهم الكثير . ولم تقف موجة الإنذار عند حد الفلاسفة فيما يعنى مستقبل هذه الحضارة وما ستؤول إليه ،

وإنما نجد صيحات أخرى انطلقت من المخابر التكنولوجية ، وحسابات الكمبيوتر وما حولهما من تقنين تكنولوجي ، قدمته مجموعات مختصة من خيرة المهتمين بقضايا مستقبل البشرية في القرن القادم أمثال مجموعة "ميدوز" و "فروستير" حينما طرحت ديناميات العالم أو حدود التنمية ، ووصل مع التباين في بعض الجزئيات إلى تأكيد صيحة الإنذار عملياً ، وبحسابات وجداول مقننة تؤكد أن البشرية وما لديها من موارد ، إذا استمرت في استنزافها بمناسبة وبدون مناسبة ، غير واضحة في حسابها العطاء المحدود لهذه الموارد والكم الديموغرافي في الالمحدود لدى المحتاجين إليها . هذه الموارد سوف تنصب في بداية القرن الثاني والعشرين . ومن باب السخرية الشريفة الأخيرة من الموارد المستنزفة رأت أحد المجموعتين أنها سوف تشكل الرواتب الأخيرة للعلماء الذين سهروا على تقنين المأساة ، عالم بلا موارد ، بينما رأت المجموعة الثانية من باب السخرية أيضاً أن الشريعة الأخيرة من الموارد سوف يستولي عليها المكتشون ممن تعودوا على اقتناء الكماليات واستهلاكها ، مرفهى الكون ، ومن ثمة نرى بغض النظر عن هذا الأسلوب الساخر أن التقنين التكنولوجي للموارد بتكامل تشاؤمه مع التقنين الذهني للفلاسفة وما أعطى كحلول منومة أو مخدرة لتأجيل الشعور بالأزمة ، لا يتجاوز الطبواويات ، كمثال الدعوة إلى التخلي عن الصناعة والعودة إلى الزراعة والرعى والبيئة الخضراء الطبيعية ، أو الدعوة إلى الاندحار الديموغرافي بمعنى إضراب البطون بصفة قطعية وجذرية ، أو تبني مسلسل الكوارث المحسوبة بالنسبة للبيئات الخاصة بالسكان بلا إنتاج ، أى عالمنا البئيس ، وذلك في شكل حروب محلية عن طريق تسخين النعرات وبث الفتن أو تعميم الجفاف والتلوث المقتن إلى غير ذلك من الفرضيات اللاإنسانية أمام حضارة متنفرة ومفترسة ، إن كانت قد حرمت جانباً من البشرية من محاسنها إلا أنها تأبى إلا أن تعم مساوئها تشارك البشرية برمتها في مآسيها .

إن هذه الحضارة التى تفخر بما قدمت من إنجازات علمية وتكنولوجية
مكن بفضلها الإنسان من أن يسبح فى الفضاء وأن يتنزه فوق القمر وأن
يختزل المسافات بل والأزمنة ، ويتنفع بتراكمه المعرفى إلى حد التخمّة
وعسر الهضم لدى هذا الإنسان المتميز فى عصر متميز بدوره ليس فقط
على مستوى الإيجابيات والإنجازات ، وإنما أيضاً على مستوى
السلبيات بما فى ذلك الحروب المدمرة الأولى والثانية وتعدد وسائل
الفناء للبشرية ، وكأنه لا تكفى وسيلة واحدة كالمستفجرات الذرية ، وإنما
أضيف الهيدروجينية والسموم البيولوجية ، فضلاً عن أن هذا العصر بقدر
ما يفخر بإنسانيته بما حقق ، بقدر ما يشعر بمرارة تلوثه بيئياً وجسدياً ،
ولم لا ؟ عقلياً ونفسياً ، فهو عصر تشرنوبل وما أحدثته من رعب
بالتلوث الذرى ، وما حملته من سموم رياح الشمال القاتلة ، ووصلت
أصداؤها إلى الجنوب ، وأتلف آلاف الأطنان من المحاصيل والمنتجات
وإنسان العالم الفقير فى أشد الحاجة إليها ، كما هو عصر المضاربات
التجارية ليس فقط فى البنيات الاقتصادية ، وإنما فى المستخرجات الطبية
والصيدلية سعياً وراء الربح وتعدد أنواع الأدوية والسموم بنعشاً عن
الكسب ولو على حساب ضياع الجسد وإفشال الكبد والكلى . إضافة إلى
تلوث آخر يتميز به هذا العصر وهو التلوث القيمى حيث يفاخر البعض
بمخروجهم عن القيم والتقاليد المتعارفة والتنكر لكل رباط مقدس حتى
المحرمات أبيحت باعتبار أنها مجرد طابو ، وأسست جمعيات تدعو إلى
ذلك ، وتعلن إباحة العلاقة مع المحارم كما أبيح الشذوذ الجنسى وأسست
له جمعيات وشرع له إباحة العلاقة بين نفس الجنس ، واكتمل البناء
الانحرافى لهذا العصر بما يلمس حالياً على مستوى بعض القيادات
العظمى فى الكون بما تمارسه علناً من رشوة وزيف وغش ، وأصبح موكب
الفضائح على كل المستويات قاسم مشترك لا ينفصل عن العظمة فى
الوقت الذى يحاسب المستضعفون على أقل الهفوات واللمم . وهنا يصدق
قول الشاعر :

قتل امرئ في غابة جريمة لا تغتفر

وقتل شعب آمن مسألة فيها نظر

وانعكس العصر بهمومه على إنسانه ولم يجد له مخرجاً إلا في ضياع هوية وعيه وإنسانيته فهو مدمن المخدرات ، "وباء فقدان المناعة" المعروف بـ"السيد أو "الإيدز" ، والانهيارات النفسية والانتحار الصامت المقنع والمعلن الصريح على حد سواء .

لقد تقدمت الدراسات النفسية والسيكولوجية والأنثروبولوجية وأشعت كعلوم متطورة للإنسان ، ومعها أيضاً تقدمت المعاناة والتلوث ، وعانى المتخصصون في الانتحار على سبيل المثال من الانزلاق إلى الانتحار مثال "جاكوب مورينو" وغيره . كما أنه عصر غنى بالتنظير لتصور المجتمع الأمثل وتحقيقه . وعانى المنظرون وأصبحوا في حاجة لمن ينظر لهم . مثال المنظر الأيديولوجي الماركسي الكبير "التوسير" ومأساته المعروفة و"بوانتازس" رائد المجموعة الماركسية المنظرة ، ومواجهاته مع "جان لوفيفر" المنظر الماركسي أيضاً في أزمة الدولة أو دولة الأزمة ، وكيف انتهى به مطاف الأزمة إلى الانتحار .

هذه الحضارة-حضارة المنتحرين وحضارة المبدعين في نفس الوقت ، الحضارة التي أفرزت "هيمنجواي" المنتحر ، كما أفرزت من أبدعوا حتى في إطار الفن وليس الأدب بمفهومه العام ولا الفلسفة أمثال بيكاسو ، ودالي وغيرهما الكثير فضلاً عن فنانة الأوبرا العالمية "ماريا كالاس" التي انتحرت بدورها وهي في أوج شهرتها ومجدها ، والتقت معها أخيراً في نفس المصير المغنية الشهيرة "داليدا" والقائمة طويلة . حضارة تعرى نفسها ولا ندري طرباً أم جنوناً ، تحرراً أم تحللاً ، تفخر بأمثال "فوكو" الفيلسوف الذي رحل أخيراً ولا يمكن إنكار قدرته كمفكر ، ولكنه عرى وتعرى ، وكأن الشعار بات هو تعرية الحضارة في جوانبها المختلفة .

هل هذه إرهابات الإنذار أو النذير بتراجع المد الحضارى السائد وبالتالي نهاية عمالقة تعنى عمالقة النهاية أم عوارض ثانوية لا توقف سيرها ، تتأزم لتتحصن وتكتسب مزيداً من المناعة والقدرة على المقاومة ؟ بين هذه الفرضيات ، نعود لتركز على ما ذكرناه وفى إطار موضوعى بعيد عن التشفى بقدر بعده عن الملق والمداهنة ، بعيد عن التشاؤم وغلاته بقدر بعده عن مغالاة المتفائلين حينما قدموا هذه الحضارة الغربية على أنها الحضارة المعجزة والتي لا تقهر وهى الحضارة الوريثة لكل الحضارات السابقة بدوراتها المختلفة تجدد وتتكيف إلى أبد الأبدى .

الحضارة الغربية شأنها فى ذلك شأن كل الحضارات الكبرى ، لها ما لها وعليها ما عليها ، تستوعب من خلال خصائصها وهى : التخصص ، توزيع العمل ، العلوم كأساس ، التكنولوجيا كمعرفة والتطبيق الصناعى كوسيلة للتطور والتقدم ، تركز على اختزال المجال زمانياً ومكانياً بل توسعت فى مفهوم الاختزال فلم تقف عند حد المجال وإنما مارسته على المستوى المعرفى بوسائل مستحدثة كالكومبيوتر والتنوع الآلى عبر تكنولوجيا متطورة ، تركز أيضاً على الإنتاج بقدر تركيزها على التوزيع والتبادل والاستهلاك إلى غير ذلك من سمات العصر الذى تصدرت فيه التنمية الاقتصادية ، بمعنى تنمية الأشياء من مصادر الثروة حتى طرق إنتاجها وتحويلها واستهلاكها بل والاستلاب بهذه التنمية فى إطار التعلق بإشباع الشهوات والاستحواذ والاقتناء فى سرعة مسعورة ، لم يبق لها فى النهاية إلا أن تختزل الإنسان لهذه الخصائص إن كانت تحسب كحضارة للغرب إيجابياً فكثيراً ما أدت إلى انعكاسات وأصداء تحسب عليها . وهنا نستعيد ما طرحه سان سيمون فى تنظيره الصناعى سواء فى مؤلفه عن تعاليم الصناع ، أو فى مؤلفه الآخر "الأنسقة الصناعية" فى عدة أجزاء . حيث صور التقدم الصناعى كنسق وتعاليم كأرضية للمراهنة على الإنسان إن وعى بها أن يكسبها ويجعلها تتم لصالحه ، أو تنتهى بخسارة المراهنة ، ويصبح ضحية من ضحاياها باعتبار

أن الأسس العلمية قامت بتوظيف المعرفة التكنولوجية في التطبيق الصناعي ، وكان المسير لذلك هو الإنسان الذي استطاع بما وصل إليه من نضوج فكري عبر عصر الأنوار والمعارفين ، وما حققه من عقلنة وعطاء فلسفي ، على هذا الإنسان أن يظل في موقع القيادة لما صنع لا المقاد بما صنع ، وهنا تعدد معيارية المراهنة ، هل الإنسان هو المراهن أو المراهن عليه ؟ هو المسخر للتقدم العلمي والمعرفة التكنولوجية والتطبيق الصناعي ، أو المسخر لهم ؟ وكان ما كان من ترحلق بين المحاور الثلاثة : العلم والتكنولوجيا والصناعة . فالعلم الذي كان في خدمة الإنسان من أجل الارتقاء بإنسانيته أضحي في خدمة المردودية للمعرفة التكنولوجية والتطبيق الصناعي لتؤول المراهنة في النهاية إلى زيادة الصناعة بمشروعاتها الكبرى وإنجازاتها ، وما صاحب ذلك من اكتشافات واختراعات ، وتصبح الغاية ليس الإنسان وإنما المردودية ، وتم ترحلق تالي بعد ذلك وهو أن الصناعة التي حوكت العلم إلى تابع لها بعد أن كانت تابعة له أصبحت بدورها مقادة بالتكنولوجيا التي آلت إليها الريادة وأصبحت مسيرة للتطبيق الصناعي والعلمي . فتراجع هدف المردودية لصالح هدف الارتقاء التكنولوجي في حد ذاته . وهذا ما نلاحظه في نهاية هذا القرن حيث التنافس بين الأعظمين يتم في ساحة التكنولوجيا المتطورة - وأصبحت العظمة تقاس بمدى الاستحواذ عليها ، مدى استحواذ العظيم عليها . أو بعبارة مباشرة مدى استحواذها عليه ، وتسخير كل طاقات المجتمع لخدمتها . أين الإنسان بعد هذا الترحلق ؟ هذا الذي وظف العلم مسانداً بالمعرفة التكنولوجية والتطبيق الصناعي إذا به في النهاية هو الموظف من قبل التكنولوجيا التي سخرت العلم والصناعة لخدمتها لتكيف الإنسان كما تشاء . وهنا نصل إلى واقع المراهنة الصناعية في القرن العشرين ، وهل انتهت بهزيمة الإنسان أم بانتصاره ؟ . وهذا ما حدى بمجموعة من المفكرين ، وكان لنا الشرف أن نكون من بينهم لوضع نظرية المراهنة الصناعية في بداية السبعينات ،

وفى خمس مجلدات تحت إشراف الأكاديمية الفرنسية وكوليج دى فرانس ، وتنسيق العلامة "فرونسوا بيرو" المنظر الأقتصادي العالمى ، وكانت بعنوان "السانسيمونية والمراهنة الصناعية" وقد أسهمنا بالمجلد الخامس عن الصناعة وأزمة الحضارة . إن كان من الصعب الجزم بخسارة أو كسب المراهنة ولكن ما نلاحظه حالياً من انقياد لهذا الإنسان الذى يعانى من تلوث البيئة بافتقاد صفاء الجو وخضرته ، وتلوث الجسد بالكيميائيات فى شكل أدوية تؤخذ بمناسبة وبدون مناسبة . وتلوث العقل بالمخدرات ، وتلوث العلاقات الجنسية بالإيدز ، هذا الإنسان المتعدد فى تلوثه بعد أن تجاهل إطاره القيمى ، وسخر المعنويات والمبادئ الأخلاقية العليا ، فضلاً عن تجاوزه أو تجاهله للمبادئ الروحانية الخالدة لتصبح فى خدمة طبائعه وغرائزه ، يكيفها حسب نفعيته وشهوته وما ينتظر من مردودية . هذا الإنسان الذى جفت فيه المشاعر والعواطف العميقة ، وأصبح جزءاً من آلية العصر هو فى الواقع يقوم بتسديد كشف لحسابات مغلوبة ، أصبحت ثمناً لتفوقه وتمرده الذهنى الذى أعطى الكثير ولم لا ؟ افتقد الكثير ، إنه إنسان حضارة الغرب الذى لا يعنى بالضرورة هذا الغربى الأوروى الليبرالى ، أو الغربى الماركسى ، فالأم واحدة ، وإنما هذا الذى أفرزت حضارة الغرب فى كل مكان ، محاكاة وتقليداً للسائد المسيطر ، فبقدر ما يحسب لحضارة الغرب ما حققه من تفوق بقدر ما يحسب عليها ما أحدثته من خسران .

حضارة الفضاء ، حضارة السابح فى الفضاء ، والمتنزه على القمر ، والمتحكم فى المعرفة بفضل الكمبيوتر ، هى أيضاً حضارة المفجر لبرك من الدماء عبر الحرب العالمية الأولى والثانية ، والمغذى بطريقة مباشرة أو غير مباشرة للفتن والقتال تحت ستار مسميات ما أنزل الله بها من سلطان يزكيها سمسرة الحروب ، وبائعى أسلحة الدمار ، حضارة قبل أن تتناقض مع الآخرين تناقضت فى حد ذاتها . وكما قالها الفيلسوف الشهير "برتراند راسل" : "حضارة العقل قدمت لنا اللامعقول" ، حضارة

تفخر بأنها جاءت لتدعيم المد الإنساني ، فإذا بها تقع فى خطأ مطبعى لتصبح حضارة مصادرة الإنسان باسم الارتقاء بإنسانيته . فقد صودرت فى الإنسان مشاعره وعواطفه ومصداقيته وقناعته الإيمانية ليتحول إلى جهاز يعطى حيثيات تبريرية للنقيض ، الغش والزيف والمضاربة أعطيت لهم مسميات التكتيك والاستراتيجية ومناطق النفوذ ، إنها تمارس المبدأ المغلوط "حلال على حرام عليك" ، حضارة عملاقة فى انتصاراتها بقدر ما هى عملاقة فى انهزاماتها وانتكاساتها . ويبقى التساؤل الأخير هل هذه إرهاصات النهاية لحضارة العمالة ، أو نهاية لإرهاصات الأزمة والتعرف على موقع الداء تحقيقاً لما أشار إليه "سان سيمون" فى تنظيره من تناوب الفترات بين النقد والتنظيم بالنسبة لمسيرة التاريخ ؟

ففى مرحلة النقد لا تكمن عناصر الإقلاع للمفترقة التنظيمية ، والعكس حينما تحل الفترة التنظيمية إلى قمة إشعاعها وعطائها ابتداءً فى التراجع لتؤول إلى فترة نقدية . وهكذا تتداول الأيام بين الأمم ، فانطلاقاً من مبدأ التناوب يمكن تقنين ما يلاحظ فى الدورة الحضارية الغربية السائدة حالياً من ثقب ومآخذ على أنه يجسد فترة نقدية قد تستعيد بعدها الدورة الحضارية الغربية قدرة دفعها باستعادتها لإنسانية الإنسان ، بعد أن أشبعت حيوانيته رخاء ورفاهية حتى التقيئ ، كما يمكن أن تكون هذه الفترة النقدية بداية لمرحلة جديدة متميزة ، بقدر ما تحتفظ بإنجازات الفترة الحالية ، وما حققته من انتصارات بقدر ما تتطلع إلى التعدد والتنوع فى مواقعها ، وهذا ما جعل البعض يتنبأ بدورة حضارة الباسيفيك المجسدة لقمة التكنولوجيا المتطورة ، ممثلة فى جانبى الباسيفيك : الولايات المتحدة الأمريكية واليابان ، والبعض الآخر يتطلع إلى وراثته الحضارة الغربية كلياً أو نسبياً فى وسائلها بعد تجاوز إنسانها ويرمز إلى ذلك بالصين ومليارها . ولم لا ؟ هنا نتطلع بدورنا إن صلح أمرنا إلى مكان فى إطار هذا التعدد الحضارى ممثلاً فى مليارنا بانتمائنا

الإسلامى كقاسم مشترك ركيزته الوطن العربى قبله المسلمين وأرضية
إقلاهم ، وحزامه المد الإسلامى فى آسيا وإفريقيا . ولكن كيف مع هذه
الوضعية المتأزمة للمسلمين ؟

الإسلام كاتنماء يمكنه أن يطرح فى إطار التعدد الحضارى ليتصدر
وكقاسم مشترك كما أشرنا تجسد خصائصه وحدة الأرض والتاريخ فضلاً
عن وحدة العقيدة وانتهاء بوحدة اللسان . قاسمنا المشترك كعيار من
البشر لا يقل إذن فى ركائزه عن القواسم المشتركة التى تمثل الكيانات
الكبرى حالياً من الولايات المتحدة الأمريكية إلى الاتحاد السوفياتى ،
إلى الولايات الهندية إلى الصين وحتى الاتحاد الأوروبى .

كل هذه الكيانات منها ما يرتكز على وحدة الأرض أو وحدة اللغة ،
أو هما معاً ، وقلما نجد الركائز الأربعة كما هو الحال فى القاسم المشترك
الإسلامى فى الانتماء لنظم تتعدد فى إطارها السياسى والاقتصادى
ولكن تلتقى حينما تكون فى مواجهة مع كيان من الكيانات الكبرى .
وليس بالضرورة تأزم حال المسلمين حالياً يعنى تأزم الإسلام . فكما نكرر
دائماً : "أزمة جيل ليست بأزمة مصير ، وأزمة نخبة ليست بأزمة أمة" .
فالمسلم المتفهم لإسلامه والمتفاهم معه يسهل عليه أن يفهم ويتفاهم مع
أخيه المسلم ، ويصبح قادراً على أن يتحاور أو يتواجه موضوعياً مع
الآخرين .

غير أن هذا المسلم لن يتحقق عن طريق الإشباع الاستهلاكى والتطلع
إلى شهوات الدنيا ومتاعها ، ويستعيد مكانته بين موائد الكبار ، بفضل
ما فى جعبته من صواريخ وأدوات للدمار ، وإنما يتحقق مستعيداً لذاته
وبنائه كإنسان فى عصر عزت فيه إنسانية الإنسان ، فهو بملياره المتحلى
بسلوك القرآن ، الإنسان المتوازن المتعادل ، روحاً وجسداً ونفساً ،
المتعادل فى مشيته وأنفاقه ، بل حتى فى صوته الخاشع لربه ومنه يستلهم
الهدى والنور . هذا المسلم السوى بسلوكه المتميز سوف يجسد أداة

تصحيح لتطور تكنولوجى وعلمى وصناعى آل فى النهاية بالإنسان إلى ما يشبه الآلة الصماء التى افتقدت أبسط مظاهر الإنسانية مع أنها واعية ولكن بوعى شقى لما تعانیه ، وكيف أنها وهى فى قمة مجدها تجسد قمة معاناتها بعد أن أستلبت بزخارف الدنيا وزينتها ، ولم يعد فى انتظارها إلا الحصيد ، تحقيقاً لقول الحق سبحانه وتعالى : «حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس»^(١) . كم كان رائعاً وخالداً أن يحدد لنا القرآن ما يداخل الإنسان من غلو مكابرة واستكبار مجرد أن الدنيا تزخرفت له فيزعم أنه قادر عليها وعلى حفظها . وهذا ما نلاحظه الآن على لسان ممارسى العظمة فى هذا الكون ، وادعائهم بمناسبة أو بدون مناسبة ، أنهم سدنة الأرض وحراسها ، وأنهم قد قسموها كمناطق فيما بينهم ، ولم يبق إلا أن يأتى أمر الله ليجعلها حصيداً كأن لم تغن بالأمس ، لا بفنائها.. فالقرآن لم يستعمل : "كأن لم تكن بالأمس" .

أغرّت الإنسان وأغوته لتعود الأرض بعد هذا الحصيد إلى حالتها الطبيعية بعد زوال جناها ، وإنما المعنى هو أن يحصد ما فوقها من طفيليات المصطنع القائم على الزيف والاستكبار ، وهنا لا نقول : يلتقى القرآن مع ما أبرزه جانب من عمالقة حضارة الغرب فيما يعنى مأزقها وطريقها المسدود الذى لا يؤول إلى أى مكان . وأنها حضارة التدمير والبعد الواحد ، وإنما هذه الصيحات من أفواه العمالقة وإنما هى التى تلتقى مع ما أنذر به القرآن الكريم ، وكيف أن المغالاة تلتهم الصانعين لها بعد افتقادهم لتوازنهم . فالإسلام ممثلاً فى عصر النبوة بالوحي الخالد والسنة الشريفة والاجتهادات البناءة فى تراث المسلمين ، هو الذى يشق طريقه الآن إلى قلوب البسطاء فى كل مكان ، كما يشق طريقه إلى عقول

(١) يونس : ٢٤ .

العمالقة فى حضارة الغرب ، بعد أن أعتهم الطرق طالبين النجاة لعقل
كرم الله وأظه الإنسان .

وفى النهاية .. أهى نهاية عمالقة فى حضارة الغرب أم عمالقة
النهاية ، إن كنا نستبعد شمولية النهاية لكل العمالقة ، ومن باب أولى
أن نستبعدا كنهاية لهذه الحضارة . لما لديها من إمكانات قادرة
ولو نسبياً على التجاوز واحتواء الأزمة ، ومع هذا فمن صاحبنا فى هذا
العرض منذ البداية سوف يصل معنا إلى قناعات موضوعية وهى أن
النهاية ليست لأقزام منهزمين جبنا أو ضالين ، أو منحرفين لقطاع ،
وإنما هى بحق لعمالقة قردوا وبوعى شقى على وحى السماء لاستبداله
صراحة أو ضمناً بفلسفة الإنسان فكان ما كان : من تأزم للعقل واستلاب
للإنسان . وصدق الحق سبحانه حين يقول : « يريد الله أن يخفف
عنكم ، وخلق الإنسان ضعيفاً »^(١) .

* * *

(١) النساء : ٢٨ .

دكتور "رشدى فكار"

● المؤهلات . والعمل . والانتاج .. باختصار :

- من مواليد الكرنك بمحافظة قنا - جنوب مصر العربية .

- بعد أن التحق بمعهد قنا الدينى ، ثم معهد القاهرة الدينى بالأزهر وتخرج منه وحصوله على البكالوريا الفرنسية أيضا بالمعادلة ، واصل دراسته فى مصر ، ثم تابعها فى أوروبا بالقسم العلمى للدراسات العليا بالسوريون ، حيث تخرج منه بحصوله على دبلومه فى الدراسات العليا ، كما حصل فى نفس الوقت على ليسانس الآداب «تخصص فلسفة بالمعادلة» من جامعة جنيف .

- حصل على دبلومين فى الدراسات العليا من باريس أحدهما فى الاجتماع ، والآخر فى العلاقات الدولية .

- حصل على درجة دكتوراة من جامعة باريس مع مرتبة الشرف الأولى سنة ١٩٥٦ .

- توجت حياته الدراسية الجامعية بحصوله بعد الدكتوراة السابقة ، على مرتبة الأستاذية مع درجة دكتوراة دولة أخرى من جامعة جنيف عام ١٩٦٧ .

● الوظائف الجامعية التى تقلدها .. والعضوية فى الأكاديميات العالمية والجمعيات والمؤتمرات الدولية ، وإقرار ترشيحه لجائزة نوبل فى الآداب منذ ٣ أكتوبر سنة ١٩٧٦ ؛

- مكلف بمحاضرات بالسوريون فى القسم العلمى للدراسات العالية بعد تخرجه منه لمدة عام .

- محاضر فى جامعة جنيف بمعهد الألسن وكلية الآداب .

- عمل أستاذاً محاضراً بمعهد العلوم الاجتماعية بجامعة محمد الخامس التابع لمؤسسة اليونسكو تحت إشراف جامعة نيوشاتل ١٩٦٢ - ١٩٦٣.

- أستاذ زائر بجامعة نيوشاتل وجامعة جنيف منذ سنة ١٩٦٤.

- أستاذ بجامعة محمد الخامس منذ سنة ١٩٦٨.

- أستاذ زائر بالعديد من الجامعات الأوروبية والعربية الأخرى.

- شارك في الإشراف على الكثير من الرسائل وأطروحات الدكتوراة المقدمة في الجامعات الأوروبية والعربية .

- ينتسب بالعضوية لأكثر من ٤٢ جمعية دولية ، وأكاديمية ، ومؤمراً عالمياً مثل :

- عضويته لجمعية استرنبرج الاسكندنافية بالسويد .

- عضويته بالهيئة العالمية للكتاب بالفرنسية «أدلف» (A.D.E.L.F.) بباريس .

- انتخب عضواً مشاركاً في الأكاديمية الفرنسية للعلوم بجامعة الخالدين - دائرة ما وراء البحار منذ ١٦ فبراير سنة ١٩٧٣.

- أقر ترشيحه لدى الأكاديمية السويدية «لجائزة نوبل في الآداب» منذ ٣ أكتوبر سنة ١٩٧٦ بمساندة هيئات عالمية ، وإسلامية ، وعربية منها :

أكاديمية العلوم الفرنسية ، وجامعة جنيف ، والهيئة العالمية للكتاب بالفرنسية «أدلف» وتزكية مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف ، ومنظمة الجامعة العربية للتربية والثقافة والعلوم (الكسو). والمجالس القومية المتخصصة برئاسة الجمهورية بمصر ..

إلى غير ذلك من الهيئات والمنظمات الفكرية والعلمية العربية الإسلامية والعالمية .

● الإنتاج العلمى :

- يتجاوز إنتاجه العلمى حاليا . ١٤ بين مؤلفات ودراسات وأبحاث وترجمات ، وتعليقات باللغة الفرنسية أساسا ، والعربية والإنجليزية.

لمزيد من التفصيل عن هذا الإنتاج يراجع «الكتالوج الدولى لجامعة جنيف .. وكتالوج المكتبة الوطنية بباريس»..

● فى الإنتاج العالمى بالفرنسية والإنجليزية .. على سبيل المثال :

- السوسيولوجيا (علم الاجتماع) والاشتراكية الدولية ، وأصول الماركسية فى مجلدين (عدة طبعات فى عدة لغات) عن دار النشر العالمية دولا شونستليه نيوشاتل وباريس سنة ١٩٦٨.

- المراهنة الصناعية فى خمس مجلدات بالاشتراك مع أعضاء فى الأكاديمية الفرنسية ، وأساتذة من الجامعات فى دول الكتلة الشرقية خصوصا المجلد الخامس عن (الصناعة وأزمة الحضارة) منشورات «دى نويل» .. «كويلج دى فرانس» والأكاديمية الفرنسية سنة ١٩٧٢.

- علم الاجتماع ، وعلم النفس والانثروبولوجيا الاجتماعية ، معجم موسوعى عالمى ، أربعة أجزاء فى مجلدين ، مصطلحات وأعلام ، بالفرنسية والإنجليزية والعربية ، باريس ، دار النشر العالمية جتير ١٩٨١ - ١٩٨٠.

● وفى الإنتاج بالفرنسية عن العالم العربى والإسلامى :

- نظرية القلق عبر الفكر الاجتماعى الإسلامى - الفرج بعد الشدة - عن دار النشر العالمية .. أدريان ميزونيف بباريس ١٩٥٥.

- تأملات فى الإسلام .. فى عدة طبعات عن دار النشر العالمية ميزونيف لاروز بباريس سنة ١٩٧٣.

- انعكاسات السوسيولوجية الوضعية وأصول الماركسية فى العالم العربى .. عدة طبعات عن دار النشر العالمية جتنير بباريس سنة ١٩٧٤.
- أصول العلاقات الثقافية بين فرنسا والعالم العربى .. عدة طبعات عن دار النشر العالمية جتنير بباريس ١٩٧٣.
- الحياة اليومية فى مصر إيان عصر محمد على .. عن دار النشر العالمية ميزونيف سنة ١٩٧٥.

● فى الإنتاج باللغة العربية :

- دراسات أنثروبولوجية اجتماعية (السحر وما حوله) دار النجاح - بيروت سنة ١٩٧٣.
- الشباب وحرية الاختيار .. مكتبة المعارف - الرباط ١٩٧٤
- أوجيست كونت عملاق السوسيولوجيا وموقفه من الإسلام (منشورات مركز البحث العلمى) بجامعة الرباط .. حوليات علم الاجتماع سنة ١٩٦٨.
- وضعية الدراسات السوسيولوجية فى المشرق العربى (منشورات مركز البحث العلمى) الجامعى بالرباط سنة ١٩٧١.
- الإسلام بين دعائه وأدعيائه - الرباط ، المعارف سنة ١٩٧٦.
- الماركسية والدين - الرباط سنة ١٩٧٦ والقاهرة دار التعاون للنشر (الإنتاج العالمى) سنة ١٩٧٩ .
- فى البغاء الوحشى - القاهرة - مكتبة وهبة . والرباط - المكتبة الجامعية سنة ١٩٧٩.

- تأملات إسلامية فى قضايا الإنسان والمجتمع .. فى مجلد موسوعى
القاهرة مكتبة وهبة سنة ١٩٨٠.

- نظرات إسلامية للإنسان والمجتمع .. فى مجلد - القاهرة - مكتبة
وهبة سنة ١٩٨٠ .

- لمحات عن منهجية الحوار والتحدى الإعجازى للإسلام فى هذا
العصر - مكتبة وهبة سنة ١٩٨٢.

- خميس البكرى - د. رشدى فكار المفكر الإسلامى العالمى ..
فى حوار متواصل حول مشاكل العصر - مكتبة وهبة سنة ١٩٨٦ .

- خميس البكرى - د. رشدى فكار المفكر الإسلامى العالمى ..
فى حوار متواصل حول قضايا تراث المسلمين - مكتبة وهبة سنة ١٩٨٨ .

- سيد أبو دومة - د. رشدى فكار المفكر الإسلامى العالمى .. ونهاية
عمالقة فى حضارة الغرب - مكتبة وهبة سنة ١٩٨٩ .

إلى جانب دراسات وأبحاث أخرى باللغات المختلفة.

● ومن أحدث مؤلفات الدكتور رشدى فكار . كما أشرنا
سلفاً :

- موسوعة ضخمة فى علوم الإنسان تتكون من أربعة أجزاء بالفرنسية
والإنجليزية والعربية حاول فيها أن يعيد النظر فى مضامين هذه العلوم
على مستوى يتجاوز المضامين الغربية ، وهذه الموسوعة - تعتبر منعرجاً
هاماً فى التقنين المعرفى «الابتسومولوجى» لمفاهيم علوم الإنسان
الأساسية ونظرياتها الرئيسية ..

* * *

محتويات الكتاب

الصفحة

تقديم	٥
عرض مدخلي : وعن حضارة الغرب يتساءلون	١٥
الفصل الأول : سان سيمون ، عميد من عمداء منظري حضارة الغرب	٢٥
الفصل الثاني : ومع سان سيمون ونهاية عملاق	٣١
الفصل الثالث : أوجيست كونت رائد المذهب الوضعي	٣٥
الفصل الرابع : أوجيست كونت ، ونهاية عملاق بالعرفان للإسلام ودوره الحضاري الخلاق	٤٦
الفصل الخامس : كارل ماركس ونهاية عملاق	٥٩
الفصل السادس : سبنسر والتطورية الداروينية ونهاية عملاق	٧٢
الفصل السابع : ماكس فيبير ونهاية عملاق	٨٥
الفصل الثامن : نيتشة ونهاية عملاق	٩٠
الفصل التاسع : سترندبرج ونهاية عملاق	٩٦
الفصل العاشر : فرويد ونهاية عملاق	١٠٤
الفصل الحادي عشر : جان بول سارتر ونهاية عملاق	١١٩
خاتمة : نهاية عمالقة .. أو عمالقة النهاية	١٢٩
دكتور رشدي فكار : المؤهلات ، والعمل ، والإنتاج	١٤١
محتويات الكتاب	١٤٦

* * *

إسلاميات

(سلسلة العالم العربى الإسلامى)

للدكتور رشدى فكار^(١)

● عن دور النشر العالمية :

- الفرج بعد الشدة عند مفكرى الإسلام ، لاهى بخهوف ،
باريس ، أدريان ميزونيف مجتمعة كارنو (١٩٥٥) .
- تأملات حول الإسلام : أسس العقيدة والجانب الاجتماعى ،
باريس . ميزونيف ولاروز (١٩٧٢) وفى عدة طبعات أخرى .
- أصول العلاقات الثقافية المعاصرة بين فرنسا والعالم
العربى ، باريس ، جتنير ، (١٩٧٢) وفى عدة طبعات .
- انعكاسات السوسيولوجيا الوضعية فى العالم العربى ،
باريس ، جتنير ، (١٩٧٤) وفى عدة طبعات .
- الحياة اليومية فى مصر خلال القرن التاسع عشر ، باريس ،
ميزونيف ولاروز (١٩٧٥) .

● عن دار الهلال ، القاهرة (بالفرنسية) :

- الفكر التقدمى فى أوروبا وأثره فى الشرق (١٩٥٩) .

(١) لمزيد من التفصيل عن الانتاج الكامل للدكتور رشدى فكار بالفرنسية والعربية والإنجليزية ، يراجع : كتالوج مكتبة جامعة جنيف حرف (ف) ، والقائمة الكاملة لأهم المؤلفات والدراسات الرئيسية للدكتور رشدى فكار مع نبذة عن سيرته المردعة « بمؤسسة نوبل » باستكهولم ، السويد ، وكتالوج المكتبة الوطنية بباريس حرف (ف) ...

● عن دار النجاح للنشر ، بيروت (بالعربية) :

السحر وما حوله مع ملحق عن إنسان القرآن ، دراسة
أنثروبولوجية اجتماعية (١٩٧٣).

● عن مكتبة وهبة للنشر والتوزيع بالقاهرة (بالعربية) :

- تأملات إسلامية في قضايا الإنسان والمجتمع (في مجلد
سنة ١٩٨٠).

- نظرات إسلامية للإنسان والمجتمع من خلال القرن
الرابع عشر الهجري (١٩٨١).

- لمحات عن منهجية الحوار والتحدى الإعجازي للإسلام في
هذا العصر - الطبعة الأولى (١٩٨٢).

- خميس البكري : د. رشدي فكار المفكر الإسلامي العالمي
في حوار متواصل حول مشاكل العصر (١٩٨٦).

- خميس البكري : د. رشدي فكار المفكر الإسلامي العالمي
في حوار متواصل حول قضايا تراث المسلمين (١٩٨٨).

- سيد أبو دومة : د. رشدي فكار المفكر الإسلامي العالمي
ونهاية عمالقة في حضارة الغرب (١٩٨٩).

● عن دار الشعب للنشر ، القاهرة (بالعربية) :

- أمصريون فقط ؟ حوار مطوّل حول القضايا الأيديولوجية
المعاصرة ، في كتاب عن الدكتور رشدي فكار وضعه الكاتب المصري
المعروف على الدالي (١٩٧٦).

* * *

رقم الإيداع بدار الكتب ٨٨/٧.٣٨
الترقيم الدولي - ٨-١٦١-٣.٧-٩٧٧

ISLAMIATE
(Serie du Monde arabo-musulman)
de Dr. R. FAKKAR

● **Editions Internationales.**

- La Délivrance après l'Angoisse, La Haye, Nijhoff, Paris, Adrien Maisonneuve, Collec. Garnot, 1955.
- Réflexions sur l'Islam, fondement de croyance et aspect social, Paris, Maisonneuve et Larose, 1972 et plusieurs éditions.
- Aux origines des relations culturelles contemporaines entre la France et le Monde arabe, Paris, Geuthner, 1972 et plusieurs éditions.
- Reflets de la Sociologie Prémarxiste dans le Monde arabe, Paris, Geuthner, 1974 et plusieurs éditions.
- Aspects de la vie Quotidienne en Egypte, Paris, Maisonneuve et Larose, 1975.

● **Edition Al-Hilal, Le Caire (en français).**

- La pensée progressiste en Europe et son influence en Orient. (1959).

● **Edition Dar Al Najah, Beyrouth (en arabe).**

- La Magie et ses alentours avec une annexe relative à l'homme du Coran étude d'Anthropologie sociale. (1973).

● **Edition Wahbah, Le Caire (en arabe).**

- Réflexions musulmanes sur les problèmes de l'Homme et de la Société. I vol. (1980).

(1) Pour les œuvres complètes de Dr. R. Fakkar: ouvrages principaux et autres travaux, en français, en anglais, et en arabe voir, Catalogue de la Bibliothèque de l'Université de Genève, Lettre F., La Liste de principaux ouvrages et travaux de R. Fakkar publiés jusqu'à 1981 et déposée à la fondation Nobel, Stockholm et Catalogue de la Bibliothèque Nationale de Paris, Lettre F.

- Vues musulmanes sur l'Homme et la société après 14 siècles, (1981).
- Methodologie et dialogue. (1982).
- Khamis el-Bakry, Dr.Rouchdi Fakkar en Dialogue Avec les Problèmes de Notre Temps. (1986).
- Khamis el-Bakry, Dr.Rouchdi Fakkar en Dialogue avec les Problemes de l'héritage culturel des musulmans . (1988).
- Sayed Abu Doma, Dr. Rouchdi Fakkar Penseur Islamic Mondialement connu et la fin des géants dans La civilisation occidentale. (1989).
- Editions, Maison du peuple, Le Caire (en arabe).
 - Long dialogue sur les problèmes idéologiques, contemporains à travers la pensée de Dr.Rouchdi Fakkar, ouvrage sur lui, élaboré par l'écrivain égyptien, bien connu, Ali Dali. (1976).

* * *

premiere édition

1409 H. - 1989

TOUT DROIT EST RESERVE

Dr. ROUCHDI FAKKAR

PENSEUR ISLAMIQUE MONDIALEMENT CONNU

ET

LA FIN DES GEANTS

dans

LA CIVILISATION OCCIDENTALE

Introduit et présenté
par
SAID ABOUDOMA

EDITION, WAHBAH LIBRAIRIE
14 Rue, GAMHORIYAH
LE CAIRE
1989

CE LIVRE

Ce volume, intitulé La fin des géants dans la civilisation occidentale, contient une introduction sur le Dr. Fakkar suivie d'un exposé détaillé sous le titre Un grand point d'interrogation sur la civilisation occidentale ? Et neuf chapitres consacrés aux géants de la pensée, de Saint-Simon à J.-P. Sartre en passant par K. Marx, A. Comte, H. Spencer, Darwin, Nietzsche, S. Freud, M. Weber, A. Strinberg et s'achève sur un chapitre intitulé Les géants de la fin ou la fin des géants ? qui souligne que, quel que soit son génie, l'homme ne doit en aucun cas oublier sa nature mortelle devant son Créateur, sans quoi il ira faute de modestie et d'humilité, vers sa plus grande défaite devant l'Eternel. En effet, la connaissance de l'homme n'a d'égale que son ignorance de ce qui l'entoure dans l'univers. Le Coran nous enseigne d'ailleurs que "la science que nous possédons n'est qu'une piètre partie de ce que nous ignorons"

Avec l'autorisation du Dr. Fakkar, ce volume est introduit et présenté par un auteur bien connu, Said Abudomah, rédacteur réputé du journal Al Ahram.

En présentant aujourd'hui ce volume en arabe sous une forme révisée et bien entendu plus complète que sa présentation en français, nous contribuons à l'élargissement de nos connaissances sur la prestigieuse civilisation occidentale à travers les géants de la philosophie et des sciences de l'homme, une civilisation qui, par l'extension qu'ont connue les idéologies libérales et marxistes, ses découvertes scientifiques et techniques, domine d'une façon ou d'une autre notre univers.

EDITION, WAHBAH LIBRAIRIE

DR. ROUCHDI FAKKAR

PENSEUR ISLAMIQUE MONDIALEMENT CONNU

ET

LA FIN DES GEANTS

dans

LA CIVILISATION OCCIDENTALE

PROF. ALI ALI ALI ALI
TAMMAM ALI ALI ALI
AL I ALI
1988

Introduit et présenté
par
SAID ABOUDOMA

